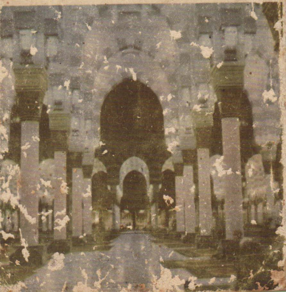
كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

العرب

تاريخ وحضارة

أنتونى ناتنج • محمود مسعود



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٤٩ — صفر ١٤٠٠ — يناير ١٩٨٠

No. 349 — January 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى — ١٢ عددا — فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

. والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

العرب
تاريخ وحضارة

•

تأليف: أنتوني ناتنج
ترجمة: محمود مسعود

•

دار الهلال

•

الجزء الأول

القسم الاول

عصر الفتـــوح

الفصل الأول :

العالم العربي قبل الإسلام

يصنع الناس التاريخ أكثر مما يصنع التاريخ الناس . بيد أنه لا يمكن وجود جنس أو أمة اتسم تاريخها بالطابع الشخصي أكثر مما اتسم به تاريخ العرب . ففي قرابة أربعة عشر قرنا ، منذ قيـــام النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تتكشف قصة العالم العربي مثل سلسلة جبال ممتدة ، تمثل قممها الشاهقة الفتوح وعظائم الأعمال التي قامت بها الشخصيات التاريخية الكبرى ـ خالد بن الوليد ، صلاح الدين ، عبد الرحمن الناصر ، بيبرس ، محمد علي ، وجمال عبد الناصر ـ وفيما بين القمم أغوار ووديان شديدة الانحدار تعني تدهورا عميقا بعد أن تغادر كل شخصية كبرى المسرح . ولقد تعاقب على حكم العالم العربي عبر القرون ، جزئيا أو كليا ، أسر حاكمة مختلفة ـ الأمويون ، والعبـــاسيون ، والفـــاطميون ، والأيوبيون ، والمماليك ، والعثمـــــانيون ، وأسرة محمد علي ، ثم الهاشميون . وعلى نسق متشابه تماما كان مؤسس كل أسرة ينشىء امبراطورية لا يلبث ورثته وخلفاؤه أن يفقدوها عاجلا أم آجلا ، فيقـــوم على الأثر زعيم جـــديد وأسرة حاكمة جديدة ويتكرر هذا على طول القرون .

ان هذا الطابع من تعاقب الانجاز العظيم والتدهور

العميق ظل يحدث في العالم العربي منذ أن بشر محمد (صلى الله عليه وسلم) بعقيدة التوحيد وبث في صحابته روحا مكنتهم من أن يخرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ويفتحوا فلسطين ومصر وسوريا والعراق وفارس . وقد بلغت الفتوح الأولى ذروتها في عصر الأمويين ، الذين نقلوا مقر الخلافة من مكة الى دمشق وذهبت دولتهم تمد رقعتها عبر آسيا وافريقية وأوروبا حتى اقامت أكبر امبراطورية في تاريخ العالم - من منغوليا الى مراكش ، ومن عدن الى جبال البرانس . وبعد ذلك انتقل مركز السلطة فجأة الى العراق ، بعد أن تولى العباسيون الخلافة من أيدى الأمويين ، وأنزلوا بهم الانتقام الرهيب واستأصلوهم عن بكرة أبيهم تقريبا من الوجود. ولكن بعد أن تحول العباسيون من بناء الامبراطوريات الى خلق مركز للثقافة والأبهة في بغداد لا مثيل في عصره ، ما لبث العرب أن مالوا الى الدعة بعوامل الترف والثراء ، وبرهنوا على أنهم غير انداد للفاطميين الذين أدالوا دولتهم من مصر ، وللصليبيين الذين غزوا فلسطين ، أو لجحافل المغول بقيادة هولاكو وتيمور لنك التي قهرتهم في فارس والعراق والشام .

ثم جاء صلاح الدين وأسرته الأيوبية بدورهم فدمروا الفاطميين وحرروا فلسطين والشام من الصليبيين الغزاة . ولكن حتى امبراطورية صلاح الدين الكبرى لم تلبث أن تمزقت بددا من خلال المنازعات التي نشبت بين خلفائه وسقطت في أيدي المماليك .

وكانت مصر حتى وقتئذ قد أصبحت مركزا جديدا للنفوذ العربي والثقافة العربية . بيد أن هذا لم يكن كافيا لصد المد التالي للغزو عندما هبط الأتراك العثمانيون

زاحفين من الأناضول وفرضوا امبراطوريتهم على العرب من نهر الدجلة الى نهر النيل وفيما وراءهما . وكان مقدرا لمحمد علي ، الضابط في فرقه البانيه بالجيش العثماني ، ان يرفع راية الثورة ضد سيطرة الأتراك ، وكذلك قدر لجماعة من العرب المسيحيين في الشام ان يوقظوا من جديد العالم العربي من سباته الطويل تحت الحكم العثماني .

وفي خلال الحرب العالمية الاولى انتزعت اسرة الشريف حسين الهاشمية بمكة الاستقلال من الامبراطورية التركية المتداعية ، ولكنها ما لبثت بعد بوادر اولية للنجاح ان وقعت فريسة لدسائس انجليزية فرنسية لطلائع قوة جديدة ناهضة : هي قوة آل سعود حكام نجد في وسط شبه الجزيرة العربية . ولم يبق الآن من هذا البيت الهاشمي سوى حاكم وحيد في الأردن ، يستمد قوته الى حد كبير من الانقسامات بين منافسيه وجيرانه ، في حين قام زعيم سياسي جديد هو جمال عبد الناصر نادى بقومية عربية ثورية جديدة أخذت تنتشر كالنار في مشاعر الجنس العربي .

ولن تحاول الفصول التالية من هذا الكتاب سرد هذا التاريخ الطويل وروايته على وجه التفصيل ، بقدر ما تسعى الى تصوير الشخصيات ، الصالح منها والطالح ، صاحب الشهرة الطيبة وصاحب السمعة السيئة على السواء ، ممن تضافروا في وضع سطور هذا التاريخ . انها ليست سجلا للأحداث بقدر ما هي معرض صور للشخصيات التي جعلت الاحداث محتومة واقعة .

***

وبسبب الافتقار الى الكتابات المدعمة بالوثائق نتيجة

لعدم توفر ورق الكتابة فيمـــا عدا ورق البردى الذى اشتهرت به مصر ، فقد ظل التـــاريخ العربى المبكر مقصـــورا الى حد كبير على الروايات والامثـــال والقصـــائد ممـــا كان يتواتر شفاهاً ولا يجـــرى تدوينه فى الورق على مدار مئات الاعوام بعد الاحداث التى تشير اليها . ولـكن محاولات ناجحة فى القرن التاسع عشر لفك رموز الكتابة المسمارية التى ترجع الى ما قبل المسيحية قـد كشفت عن تشـــابه بين لغـة البابليين والاشـــوريين والارامين والـــكلدانيين والفينيقيين والعموريين والعبرانيين والعرب والاحباش ، تشابه كان له من القوة واسترعاء النظر ما أوحى بأن هذه الاقوام لابد انها انحدرت من أصول واحدة . ومن هذا المنطلق ثبت ان اســلافهم المشتركين كانوا هم العرب الاصليون أو الساميون من قبيلة سام — ولفظ (عربى) هو التعبير السامى عن ساكن الصحراء — قد عرفنا الآن ان أوائل الاستيطان الجمـاعى فى جزيرة العرب حدث فى اليمن فى عهد مملكة يعـــــرب ، وهو الجيل الخـــامس من ســـلالة سام . وحـدث بعـد أن أصبح هـذا الركن من شبه الجزيرة العربية أضيق من ان يتسع لعدد متزايد من السكان ، ان اتجهت الهجـرة العربية الاولى حوالى عام ٣٥٠٠ ق . م . الى الخارج على امتداد الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية ، مرورا بالحجاز وسيناء ، الى أرض مصر ، حيث اختلط الساميون بالحاميين فجاء منهم المصريون الذين عرفهم التاريخ وأقاموا من عناصر العلم والثقافة ما هو أساس حضارتنا الراهنة .

وقد بدأت هجـــرة أخرى على الشـــواطىء الشرقية لشبه الجزيرة العربية وانتهى بها المطاف الى الاستقرار

فى وادى نهرى الدجلة والفرات ، حيث اتحد الساميون مع السومريين اللاساميين وجاء منهم البابليون ، وكما حدث مع نظرائهم فى مصر، فقد أخذوا من الثقافة المحلية والعادات والطرائق العلمية ما يفى باحتياجاتهم . وبعد الف سنة أخرى حدثت هجرات أخرى عربية الى الشام وفلسطين ونشأت عنها أمم العموريين والفينيقيين . وبعد الف سنة أخرى فيما بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق. م. ، قدم العبرانيون الرحل الى فلسطين واقاموا أول ديانة فى العالم تدعو الى التوحيد ، وقد أصبحت بدورها أساسا للعقيدة المسيحية . وفى نفس الوقت اتجه الاراميون الى الشام وأسسوا عاصمتهم فى دمشق . ولكن الاراميين ما لبثوا فى القرن التاسع قبل الميلاد أن دالت دولتهم أمام الاشوريين من سلائل البابليين ، الذين جاءوا من نينوى وانشأوا امبراطورية امتدت من ارض بابل (جنوبى العراق) الى أرمينيا فى الشمال وفينيقيا (أو لبنان كما هى اليوم) فى الغرب ، وهى امبراطورية نافست — وان لم تفق قط — امبراطورية بابل ذاتها . والى الشرق من ذلك سيطر الميديون على فارس الحديثة بأسرها وعلى جزء كبير مما نعرفه الآن باسم باكستان فى حين أصبح شبه الجزيرة العربية قلعة منيعة لعرب الصحراء لا ينفذ اليها طارق .

وقد خلف الكلدانيون لفترة قصيرة الآشوريين فى حكم الشام وجنوب الجزيرة وجنوب تركيا . ولكن استقلال هذه الامبراطوريات القديمة ما لبث فى القرن السادس قبل الميلاد ان لقى نهايته بهجوم البارثيين أسلاف الفارسيين اليوم ، أولئك الذين انطلقوا من معاقلهم جنوبى بحر قزوين وأستولوا على امبراطورية الميديين فى الشرق ومدوا رقاع ممتلكاتهم لكى تشمل آسيا الصغرى وشطرا من

اليونان ، بالاضـافة الى مصر وليبيا وفلسطين والشام والعراق . وبعد قرنين من الزمان عكس اليونانيون الوضع تحت قيادة الاسـكندر الأكبر وحلوا محل الفرس ، لـكى يسقطوا هم انفسهم على أيدى الرومان . وبحلول القرن الثانى الميلادى اسـتولت روما على امبراطورية اليونان كلها من ليبيا الى العراق ، ولكنها صدت عنـد حدود بارثيا وصحارى الاراضى العربية فى الجنـوب . وبعدئذ كما هو الحـال فى التاريخ الحديث ، ركزت الامبراطوريات الـكبرى فى أوروبا اهتمامها على الاراضى الخصبة فى شمال وشرق البلاد العربية ، تاركة الاقاليم الصحراوية المجدبة من شبه الجزيرة العربية وشأنها .

وكانت العلاقات بين جميع السلالات المختلفة للمهاجرين العرب الاصليين وبين حكامهم من الفـرس واليونانيين والرومان سلمية ومنسجمة . لقد هيأ الاطراف الثلاثة بعضهم لبعض فرصا طيبة للتجارة ، وبعد اعتناق روما للمسيحية دخل الكثيرون من رعاياها فى الشام وفلسطين ومصر فى الديانة الجديدة . ولـكن خلال الاحتـلال الرومانى نمت أشد التطورات المسترعية للنظر فى مجال التجـارة وقد بدأ ذلك فى جنوبى شبه الجـزيرة العربية . ذلك ان مملكة اليمن الأصلية كانت حتى ذلك العهد قد انهارت وانقسمت الى مجموعة من الدويلات والممالك الصغيرة : كانت مملكة سبأ هى القوة المسيطرة فيما فيما بين عام ٧٥٠ وعام ١١٥ ق . م . وقد استطاع أهل سبأ ، أو فينيقيو الجنوب ، أن يباشروا عمليات تجارية وافرة الربح كان قوامهـا اعادة نقل وتصدير اللبان والأقمشة والحرائر الصينية ولآلىء الخليج (العربى) ومنسوجات الهند الى جانب منتجـاتهم من التوابل والعطور التى كان يقبل عليها الرومان المشغوفون بالترف .

ولقد دام احتكارهم لهذه التجارة التى كانت تنقلهــا الجمال على شاطىء البحر الأحمر مرورا بمكة الى مصر والى البحر الابيض المتوسط ــ مدى قرون عديدة ، الى ان وجد الرومان أسعارهم باهظة الى أبعد حد . وقــد حدث حوالى عام ٢٥٠ ق. م. ان بطليموس الثانى حاكم مصر عمل فى لهفـــة لوضع بلاده على الخريطة والاسهام بنصيب فى تجارة النقل مع روما،عن طريق اعادة فتح قناة مهملة كانت قبل ذلك بستة عشر قرنا تربط النيل بالبحر الأحمر . وبعــد ذلك اخــذت السفن التجارية الرومانية والمصرية تذرع الطريق ذهابا وعودة الى الشرق مباشرة ، جالبة فى عودتها مواد الترف التى عمل التجار العرب على اقناع العالم الغربى على مدار مئات الاعوام بأنه لا يمكن الحصول عليها الا فى بلاد العرب . وهكذا انهار رخاء سبأ وسلطانها .

وكانت البتراء هى الدولة العربية التالية التى ظفرت بالتفوق التجارى بوصفها مملكة النبطيين ، وكانت تمتد من العقبة جنوبا حتى دمشق شــــمالا فى القرن الاول الميلادى . وكان النبطيون ، نسبة الى نبيوت بن اسماعيل، وهم قبائل رحل جذبتهم الى البتراء مياهها الصافية ، قد قدموا من شرق الأردن حوالى عام ٦٠٠ ق. م. ، وحلوا محل الايدوميين أهلها الاصليين . وفى عام ٣١٢ ق. م. قاوموا غزوا للروم قام به خليفـة الاسكندر فى الشـام ، ولكنهم بعد قرنين أصبحوا مستعمرة للامبراطور الرومانى تراجان . وبعد ثلاثمائة عام اخرى أعار النبطيون أنفسهم للقيام بمحاولة رومانية لغــــزو جنوب البلاد العربية والاستيلاء على اليمن . ولكن الحملة باد معظمها وعادت الى اليمن موسومة بالعــار . وكانت البتراء ، مثل سبأ ،

تجنى مالها من القوافل التى تجتــــاز ممراتها الضيقة الوردية الحمراء وتجد عند القبائل المأوى والابل البديلة والحماية استعدادا للرحلة التالية . على انه بعد ان طور الرومان طرقهم البحرية الى الشرق ، متجاوزين شبه الجزيرة العــربية ، ما لبثت البتراء بدورها ان فقــدت مكانتها وحلت محلها بصرى كمركز لطرق القوافل فى بلاد العرب .

ولقد حافظت بصرى حتى نهاية القرن الأول الميلادى على وجود محايد بصــورة غير مستقرة فيمــــا بين امبراطوريتى روما وفارس المتنافستين . ولكن وقوع هذه المدينة فى مركز استراتيجى على الطــريق البرى بين الخليج (العربى) والبحر الأبيض المتوسط طريق الشام ، هيأ لها نموا فى الثراء حتى أصبحت واحدة من اغنى البــلاد فى الشرق الأوسط ، وفى عام ٢٦٠ الميــلادى تمكن حاكمها اذينه من طرد الفرس من الشام ومطاردتهم حتى أسوار عاصمتهم طيسفون على نهر الدجلة . وهكذا استطاعت بصرى فى مدى أشهر قلائل أن تحكم باسم روما آسيا الصغرى والشام ومصر . ولكن مجدها كان قصير الأمد . ففى عام ٢٦٦ قتل اذينه وقيل انه لقى مصرعه بغدر من جانب الرومان . واعقب ذلك فترة نصر قصيرة حينما انقلبت ارملته الجميلة الطموحة المعروفة باسم الزباء على روما ، فقــد طردت الرومان من الشام ، واحتلت الاسكندرية ونادت بابنها ملكا على مصر وبنفسها ملكة على الشرق . بيد ان روما ما كان يمــكن أن تهزم بهــذه السهولة ، ففى هجوم مضاد حاسم على بصرى وقعت الزباء فى الاسر واقتيدت الى روما مكبلة بأغلال من ذهب خلف المركبة الحربية التى استقلها آسرها .

وفى خلال ذلك حل الحميريون فى عام ١١٥ ق . م .

محل أهل سبأ في جنوبي بلاد العرب ، وكانوا قبيلة من النجديين في الجنوب الشرقي ، أسسوا مملكة قدر لها أن تدوم ستمائة عام ، حتى الغزو الحبشي في عام ٥٢٥ الميلادي . وبسبب تناقص التجارة الى حد ضئيل ، فان الحميريين وغيرهم من القبائل في جنوب البلاد العربية ارتدوا الى حياتهم البدائية السابقة . كان هؤلاء الاقوام البسطاء الذين لم تمسهم بعد الديانة اليهودية والمسيحية يعبدون ما يتفق واحتياجات وجودهم الضئيل . وخلافا لما كان عليه الفرس الذين تلقوا عن زرادشت عبادة الشمس باعتبارها مقر (الكائن الأعلى) وأن يقرنوا الخير بالضوء والنار ، والشر بالظلام — فان العرب في تلك العهود كانوا عموما يعبدون القمر . فعند الفارسي الذي كان يعيش في الاراضي المرتفعة الجبلية كانت حرارة الشمس تغدو محل قبول وترحاب ، أما عند العربي ساكن السهول الصحراوية فان الشمس كانت بمثابة قوة قاتلة ، والقمر يجلب الندى والظلام بعد الحرارة المحرقة والضوء الذي يعمي الابصار في النهار . وكان المتواتر في الاساطير الوثنية أن الحجر الاسود في الكعبة بمكة ، وكان موضع التقديس قبل الاسلام بزمن طويل ، قد ألقاه من السماء هبل إله القمر ، وكان يعبده الحجاج والمسافرون الذين ألهوا القمر . وكانت القبائل العربية الأخرى تحلم بالخصب والظل ، ولهذا فقد كانت تعبد الآبار والكهوف ، والاشجار . وكانت بئر زمزم الشهيرة بقرب مكة محل تقديس خاص ، لما قيل من أنها انقذت هاجر واسماعيل من الموت ظمأ في القفار .

وكانت حياة العرب الاجتماعية مثل ديانتهم ، مرتبطة بمطلب وجود خشن قاس وكثير الخطر ، وخاصة بالنسبة

للبدوى المرتحل (وهو الاسم المشتق من البادية) . وكانت قوانين وعادات القبائل ، وهى التى بقيت الى حد كبير دون تغيير الى اليوم ، وقد حافظت القبائل على اسلوب حياتهـا فى تلك المناطق الغنية بالبترول اليوم حيث حلت السيارة الكاديلاك محل الجمل كوسيلة لانتقال شيوخ القبائل ــ وقد نشأت تقاليد البداوة للتغلب على ما فى الحياة الصحراوية من الوان المخاطر والمعاناة .

وكما يقـول فيليب حتى فى كتـــابه (تاريخ العرب) : « ان البدوى ليس من الغجر الذين يطوفون بلا هدف لمجرد التطواف . انه يمثل أفضل تكيف للحياة البشرية مع ظروف الصحـراء . وحيثما توجد الارض المخضرة فانه يتجه اليها بحثا عن المرعى . ان الحيــاة البدوية هى نمط علمى للعيش فى النفود (وهى المناطق الصحراوية الوسطى فى شبه الجزيرة العربية) مثلها مثل الحياة فى البيئة الصنـاعية بالنسبة لدترويت أو مانشستر » .

وطبقا لدورة الحيــاة لا تتغير ولا تقبل التغيير منذ العصور السابقة للاسلام ، فان البدوى المرتحل منـذ خمسة عشر قرنا من الزمان ظل يعيش ويأكل ويسافر ويتاجر على نفس النمط الذى تحتذيه سلالته الى اليوم . فالعنصر الاساسى فى غذائه يتكون من التمر ، والدقيق ، ولبن الناقة او الماعز ــ أما الماء فهو يحتفظ به عادة للابل والمعز والغنم . وكان ملبسه ، ولا يزال ، قميصا يمتد حتى ركبتيه ، وفوقه أزار يتدلى حتى رسغى قدميه ، ويغطى رأسه بشال مشدود بحبل ، يطرحه حول عنقه ووجهه لوقـايته من الشمس ولدفـع الاتربة عن انفه وفمه . وكان مسكنه بالمثل يهيىء له اقل قـدر من الراحة ويتألف من خيمة مستطيلة واطئة مصنوعة من

الوبر الأسود أو البني لجلود الابل أو الماعز . وكان مورد عيشه يقسوم على تربية (أو سرقة) الشياه والماعز والجمال ، وأحيانا الخيل ، وبها يبادل السلع للحصول على الطعام وغيره من الأساسيات الضرورية لحياته .

ومن بين كافة ممتلكاته كان الجمل هو أهمها . فانه لا يهيىء له فقط وسيلة الانتقال التى تتطلب اقل قدر من الراحة — وفى قدرة الجمل أن يمضى بغير ماء مدى خمسة وعشرين يوما فى الشتاء وخمسة أيام فى الصيف — بل أن لبنه يقدم له ايضا شرابه الاساسى، كما يزوده روثه بالوقود للطهى ، وعندما تنتهى أيامه كدابة للحمل ، فانه يأكل لحمه وينتفع بجلده فى صنع أو اصلاح خيامه .

وكانت الزراعة او اى شكل للعمل اليدوى الذى يحد من حرية البدوى المرتحل فى الحركة ادنى مما يليق بكرامته . ان مثل هذا العمل كان مخصصا للقرويين وأبناء المدن من أهل الاستقرار ، وللفلاحين والتجار وأرباب الحرف الذين يكدون فى الحقول وحول مناضد العمل او الذين يحصلون على رزقهم من قوافل الجمال التى تذرع الطرق باستمرار خلال الحجازفىطريقهاالى البتراء او بصرى . وكان هؤلاء القرويون وابناء المدن الذين يعرفون بأهل الحضر يسكنون بيوتا مبنية من الحجر أو الطين ، وكانت تفصلهم شقة اجتماعية واسعة عن أهل البادية الرحل الذين يعدون أنفسهم اكثر رجولة وشرفا وأرفع مقاما . وهكذا كان البدوى المرتحل اذا الحت عليه ضرورات المحافظة على الحياة أو اذا اعوزه المال الكافى لجلب الطعام ولم يستطع الحصول عليه بالاغارة على جيرانه من أهل الصحراوات كان يستبيح لنفسه تماما نهب الفلاح او ابن المدينة للحصول على ضرورياته . وكان

من شأن هذه القرصنة ان تثير حتما اعمق السخط بين العرب المتوطنين ولا ينجم عنها سوى زيادة اتساع وتعميق الشقة القائمة بينهم وبين اخوانهم البدو الرحل . وحتى اليوم وعلى الرغم من ان العرب المتوطنين يتمتعون بحماية قوة بوليسية عصرية وقد أصبح بدوى الصحراء بحكم الظروف شخصا مطيعا للقانون ــ فان بعض الكراهية القديمة لا تزال باقية بين الحضرى وبين البدوى ، لما يكنه هذا لذاك من احتقار لما تقوم عليه حياته من طراوة هى ادنى منزلة من صلابة سليل المنبت الصحراوى ذى الأيد والشدة ، ذلك لان بدوى اليوم لا يزال يعد نفسه ارستقراطى المولد وانه أنبل خلق الله طرا .

لكن ، اذا اعتبر فى الزمن القديم ان الاغارة على جار أو نهب فلاح شيئا مباحا ، فقد كانت تقوم بين المنتمين الى قبيلة واحدة طائفة من القوانين والقواعد تختلف عن هذا كل الاختلاف . فان ما يعد قرصنته مشروعة خارج دائرة القبيلة كان جريمة اذا ارتكب فى نطاقها . ذلك لأن القبيلة كانت اساس المجتمع البدوى . كانت لدى عرب الصحراء هى اسرته ، ونقابته ، وناديه ــ بل فى الواقع جماع دائرته الاجتماعية ، فانها تعطيه الحماية ، والعمل والمركز الاجتماعى ، ومورد الرزق . وبدونها فهو خارج على القانون يعتدى عليه كل انسان . وفى نطــاقها يستطيع ان يحيا حياة كاملة آمنة بقــدر ما تسمح به بيئته الصحراوية . ومنها يتخذ زوجاته ورفاقه فى القتال ويأخذ ثقافته البدائية وأساسها التدريب العملى فى فنون الحرب ، والصيد ، والاغارة وركوب الرواحل بقــدر ما يلزم لبقائه فى الوجود . ومن ثم كان شعاره هو « الكل للواحد والواحد للكل » وهو القانون المطلق الذى يحكم

حياته . كانت (العصبية) أو التضامن القبلي هي محل الاعتبار الأرفع فوق كل ما عداها . ذلك لأن الافتقار الى أي معنى قومي كما نعرفه ، جعل عربي الصحراء يهب حياته وولاءه لقبيلته . وهكذا كانت (العصبية) بالنسبة اليه مساوية لما نسميه اليوم بالوطنية ، وكل من يأثم في حق مفاهيمها ويقصر في مراعاتها في كل أفعاله ، يلقى العقاب .

ولم يتغير نظام القبائل عبر القرون الا قليلا ، مثله ذلك مثل قوانينهم وعاداتهم . وكانت كل قبيلة تنقسم ، ولا تزال ، الى عشائر ، تتفاوت اعدادها طبقا لحجمها ووضعها الاجتماعي .

بيد انه مهما يكن من كثرة الاقسام والفروع التي تكون في كل عشيرة ، فان أفرادها جميعا يعدون أنفسهم من دم واحد ، ويدينون بالولاء للقبيلة ، التي يستخدم صيحتها الحربية المشتركة كل فرد في القبيلة أثناء الاشتباك . ولعل أهمية رابطة الدم هذه تتمثل على أشدها بحقيقة ان أعضاء كل قبيلة ظلوا مهما طال الزمن يسمون انفسهم (بني) فلان ومن هنا جاءت تسمية بني غسان في فلسطين القديمة ، وبني صخر في الاردن في الزمن الحديث . وبالمثل فان رجل القبيلة يشير الى رفاقه من رجال القبيلة بوصف بني عمه ، فهم عنده اذن بمثابة أبناء الأعمام .

وكانت ممتلكات عربي الصحراء ضئيلة مثل غدائه اليومي . فما يمتلكه هو خيمته الخاصة وقليل من الأثاث البسيط مثل الابسطة وجلود الغنم . أما بصفة عامة فان الحيوانات والأغنام والماعز والابل ، وهي التي تعيش بها قبيلته وتتنقل ، ملكية مشتركة ، وكافة

حقوق الرعى والآبار ملك للقبيلة غير قابل لاى تحويل . ولا مفر فى ارض كان المرعى والماء فيها عزيز المنال بصورة بالغة ، أن تقع المنازعات كثيرا بين القبائل بصدد حقوق الرعى واستخدام الآبار . وكما ان القبائل تعد بعضها البعض هدفا مستباحا لسلب الابل والغنم والمعز ، فلذلك كانوا يقتتلون حول حق المرعى .

ولكن على الرغم من أن البـــــدو الرحل كانوا كثيرا ما تدفعهم الضرورة الملحة ، وأحيانا الطمع بل حتى دوافع اللهو العبث ، لسلوك مسلك قطاع الطرق لاستلاب كل ما يمكنهم استلابه - فانهم لم يكونوا مجردين من قواعد صارمة معينة للسلوك خارج وداخل قبائلهم على السواء . ومن هذا انه كان مفروضا عند الاغارة على جار عدم سفك الدماء الا فى حالة الضرورة القصوى . ومنه ايضا ان القبيلة القوية كثيرا ما كانت تتولى حماية قبيلة اضعف ضد الاغارة عليها من جانب طرف ثالث ، وأن كان هذا لا يتم دون اقتضاء ثمن عينى من أجل الحماية . وأهم من هذا كله هو أن قانون ضيافة الغـــريب كان قانونا مطلقا . كانت الضيافة عنصرا حيـــويا فى خلق ومسلك البدوى ، وتتجلى اهمية هذا فى نص من الشعر العربى القديم كثيرا ما كان يستخدم تحية للضيف القادم بما يشعره انه رغم وفادته فهو رب البيت ، وأصحابه هم الضيوف .

ان صد الضيف الذى جاء يلتمس الطعام والمأوى كان ابتداؤه بعد حلوله ضيفا جريمة فى حق الشرف العربى . بل ان أكل الطعام مع مضيفه يجعل الضيف فى مأمن من العدوان عليه ، وبالمثل كان من عادة رؤساء القبائل أن يهيئوا حرسا أو مرورا آمنا للمسافرين الذين يجتازون

مناطقهم ، وأي هجوم مباغت على مثل هذا المسافر المتمتع بالحماية فيه مساس بشرف القبيلة كلها. ولا احد يعرف أكثر من البدوي المرتحل مخاطر الحياة الصحراوية وأسفارها وعذاب الظمأ ولظى الشمس المحترقة ومخاطر الهجوم من جانب قطاع الطرق ــ وهو في الواقع يعيش دائما مع الموت .

وقامت الثقافة في ظروف الصحراء الجافية حيث تنحصر جهود كل انسان في مشكلة البقاء على قيد الحياة ــ ثقافة بدائية مكرسة للشئون العملية الصرفة مثل الصيد ، والقتال ، وركوب الخيل . ولم يكن في المدن والقرى كذلك سوى القليل من التعليم بمعناه التثقيفي . وعلى الأولاد حالما يتركون حجر أمهاتهم أن يتعلموا تجارة الأسرة أو حرفتها . لكن لم يكن معنى هذا ان كل عربي في عهود الاسلام كان أميا تماما . اذ كان يوجد في كل منطقة مستقرة كتاب وكذلك كان للقبيلة شعراء كانوا محل التوقير لجمال كلامهم وبلاغته وكان شاعر القبيلة كذلك قادرا على اثارة حماس القبيلة عند القتال . ثم ان اللغة العربية بايقاعها الجميل كان ولا يزال لها سحرها في الهاب مشاعر الجماهير ، ومن ثم كان حتى البدوي الأمي يمكن ان يقضي ساعات فراغه يردد او يستمع الى رفاقه من أبناء القبيلة يرددون الشعر أو يبدئون ويعيدون في سرد حكايات وأساطير عن حياة الصحراء ظلت متواترة منذ أجيال مضت . وفي عالم خشن عملي محروم من اية ثقافة كانت اللغة العربية وغناها موضع فخر العربي . فان الرجل الكامل هو ذلك الذي يجمع بين براعات ثلاث هي البلاغة والرماية بالسهام والفروسية ، وكانت اعظم الثلاث هي البلاغة .

الفصل الثاني :

ظهور النبي صلى الله عليه وسلم

عند مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) عام ٥٧١ كان جنوب البلاد العربية ولا سيما الحجاز مباءة للآثام وعبادة الأصنام . كانت مكة ، المدينة الرئيسية في الحجاز ، والتى اشتق اسمها من كلمة بمعنى الحرم حرم بلغة أهل سبأ ، وقد أصبحت غنية كمحطة للقوافل على الطريق البرى من جنوب البلاد العربية ، وكمركز للحج لكل من يعبدون الأصنام على أى شاكلة . وكانت الكعبة تضم ما لا يقل على ثلاثمائة من الأصنام التى تلائم كل ذوق . وكانت الخرافات منتشرة ، والجن محل خوف شديد . بل أن شغف العرب بالشعر كان قد انحط ، إذ انحدرت سوق عكاظ السنوية للشعر الى ما أسماه احد المؤرخين الاخباريين العرب (بملتقى للرذيلة لا يوصف) . وكانت ممارسات السكر والعربدة والفجور هى الطابع السائد عندما كان الحجيج ورجال القوافل فيختلط حابلهم بنابلهم فى تحلل بالغ من كل قيد. وفى احدى المناسبات حاول حكام اليمن الأحباش القيام بغزو الحجاز لوضع حد لهذه المباذل الوثنية ، ولكن جيوشهم توقفت بسبب وباء نزل بها فى الطريق .

وكانت أكبر قبائل الحجاز فى ذلك العصر قبيلة قريش، وهى القبيلة التى وطدت سلطانها بزعامة قصى بن كلاب سليل ابراهيم واسماعيل منذ عام ٤٤٠ ، وكانت قريش قبيلة ذات قوة وسلطان فى مكة وما حولها . ولا يعرف الا القليل عن أعمال قصى ، ولكنه شخصية بارزة وهو جد النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وكل خلفاء المسلمين على مدار ستمائة عام بعد وفاة محمد كانوا من سلالته المباشرة . وكان أمية مؤسس الأمويين من ابناء أحفاده . ولذلك كان حفيده هاشم جدا للعباس ، الذى تسلسل عنه الخلفاء العباسيون . وكان هاشم ايضا ، سلفا للعلويين والهاشميين المحدثين .

وكانت مختلف الرياسات فى مكة عند نهاية القرن السادس مقسمة على أساس وراثى صرف بين الطائفتين الرئيسيتين — بنى هاشم وبنى عبد شمس — من قبيلة قريش ، كان صاحب القابه أو صاحب النور المشرف على بئر زمزم هو العباس ، عم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد توفى عبد الله أبو محمد قبل مولد ابنه باشهر قلائل . وبسبب العوز الناشىء عن هذه الوفاة والمرض والتقاليد القبلية ، وتولت رعايته امه آمنة بنت وهب رضى الله عنهـــا . وجريا على عادة القرشيين فى ذلك العصر بعثت آمنة بابنها محمد الى منازل بنى بكر بن سعد لينشأ فى الصحراء . وهكذا أمضى محمد السنوات الست الأولى من حيـاته فى الصحراء . ثم توفيت أمه عقب اعادته اليها ، فكفله جده أولا ، ثم عمه أبو طالب .

وكان أبو طالب يجمع بين دور التاجر وواجبات السيد العظيم الشأن ، وعندما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره صحبه عمه فى احدى رحلات القوافل السنوية التى كان

يقوم بها الى الشام . وقد توقفت القافلة فى طريقها عند أحد الأديرة الشامية ، حيث التقى محمد براهب نصرانى يدعى بحيرا عرف فيه علامة النبوة وهى شـامة على كتفه . وعلى الرغم من ان محمداً كان أميا ، الا انه كان على قدر كبير من الذكاء وحب الاستطلاع والتأمل ، وقد نفر منذ صبوته من أسلوب الحياة فى مكة القائم على عبادة الأصنام والفساد . ومن المحتمل ان عمه كان متعاطفا مع آراء ابن أخيه ولكنه أبقى نواياه طى الكتمان محافظة على مكانته ورعاية لمصالحه كتاجر .

وعندما بلغ محمد الخامسة والعشرين كان قد وصل الى مكان مرموق فى المجتمع المكى . وكان متوسط الطول موفور الذكاء الى حد بالغ ، مهيب الطلعة ، كبير الرأس ، عريض الجبين ، أسود العينين ، له لحية سوداء كثة ، وبشرة بيضاء مشربة بحمرة . وكانت ابتسامته تنم عن العطف والمودة ، ولكنه قلما كان يضحك عاليا ، بالاضافة الى ما ظفر به من شهرة كتاجر أمين ، ثم عمل فى تجارة سيدة غنية اسمها خديجة كانت تمارس التجارة ايضا ، مما افضى بها الى الزواج من محمد .

ولـكن فى حين ان زواج محمد وحيـاته العملية كانا مقترنيين بالسلام والسكينة ، فان نفسه كانت تميل الى العزلة والتأمل وكان يلجأ الى غار حراء ويقضى فيه شهر رمضان من كل سنة . وبينما كان يتعبد فى الغار يوما نزل عليـــه الوحى يحمله اليه جبريل وناداه يقول (اقرأ) فقال محمد (صلى الله عليه وسلم) ما أنا بقارىء وتكرر هذا ثلاث مرات ثم تلا جبريل قـــوله تعـالى (اقرأ باسم ربك الأعلى) الخ الآيات الخمس الأولى من سورة (العلق) فرددها محمد وهو خائف . ثم أسرع

الى بيته وهو يرتعد ويقول (زملونى ، زملونى) واسرعت اليه زوجته المخلصة خديجة بنت خويلد فزملته فى ثوب ومضت تطمئنه حتى هدأت نفسه .

وايمانا منها بانه ينطق الصدق فقد صحبته الى ابن خالتها ورقة بن نوفل الذى يقال انه كان نصرانيا فطمأنه ورقة وقال له ان هذا هو الناموس الذى انزل على موسى وخلال الأسابيع التالية عرف محمد (صلى الله عليه وسلم) ان جبريل حمل اليه رسالة ربه فأصبح نبيا رسولا ومضى ينشر رسالته ، وقصر دعوته طيلة العامين التاليين على عشيرته الاقربين وقلة من اصحابه . فدخلت خديجة فى الدين ، كما دخل على ابن عمه ابى طالب ، الذى تزوج ابنته فاطمة فيما بعد . وكذلك اسلم ابو بكر صديقه الحميم ، وعثمان ابن عفـــان وهو ابن عم أبى سفيان ، من بين اوائل انصاره المؤمنين القلائل . ولكن أعمامه تراوحوا بين الحياد الكريم مثل ابى طالب وبين العداوة المضطرمة مثل ابى لهب .

ثم تلقى محمـــد من جبريل فى عام ٦١٢ الدعوة الى المجاهرة برسالة ربه وتوجيهها الى الناس كافة وخاصة لقريش ، وسمى دينه (الاسلام) (ومعناه التسلم لله) ، وسمى اتباعه المسلمين ، واعلن الى اهل مكة ان الله هو الواحد القادر الخالق للكون ، وان يوم الحساب آت يوم يهلك الـكفار فى نار جهنم وينعم المؤمنون بالجنـــة خالدين فيها . وقد قوبلت دعوته بالضحك والسخرية ، وقال له الدهماء ان كنت نبيا فأت بمعجزات مثل موسى وعيسى . فلما جاوبهم بأن كلمة الله هى المعجزة الكبرى قابلوه بالضحك الصاخب .

ورغم ذلك فان ظهور محمـــد لاول مرة اكسبه نواة

صغيرة من المسلمين ، وأدرك بنو عبد شمس من قريش انهم ازاء خطر محتمل يهددهم ويهدد اسلوب حياتهم . وشعر زعيمهم أبو سفيان بغيرة مريرة من الهاشميين ، ورأى فى خروج محمد على عقيدتهم تحديا لما يحرصون عليه . ومع ذلك فخشية من اثارة حزازات دموية لم يجسر الكفار على قتله . وبدلا من ذلك حاولوا اغراءه بالمال ليترك دعوته . ولما أخفقوا فى هذا حاولوا تهديد أبى طالب وغيره من أسرته . وأخيرا أخذوا يضايقون محمدا بعدوانهم المتكرر ومحاولة ايذائه فى كل مكان ، فكانوا يفضون اجتماعاته ويعذبون تابعيه . فخرج محمد الى الطائف ، أملا فى دخول أهلها فى الاسلام ولكنه لم يوفق . وفى عام ٦١٥ اضطر الى أن يرسل أتباعه المائة أو نحو ذلك لالتماس الملجأ عند نجاشى الحبشة النصرانى ، وبقى هو مع فئة قليلة من أصحابه فى مكة .

وعندما أخفق الكفار فى حمل نجاشى الحبشة على تسليمهم اتباع محمد انقلبوا على الهاشميين فى الحجاز وسلطوا عليهم سلاح المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لاجبارهم على تسليم النبى اليهم . وظلوا الهاشميون مدى ثلاث سنوات وهم لا يستطيعون أن يشتروا أو يبيعوا شيئا ، ولكنهم صمدوا رغم تعرضهم للجوع والهلاك ، وفى النهاية ألقى أبو سفيان سلاحه . ولم يشذ من أسرة محمد سوى أبى لهب الذى انضم الى الكفار ، وبلغ به الحنق حدا جعله يأمر ابنه بتطليق رقية ابنة محمد ، وقد تزوجت بعد ذلك عثمان بن عفان ، الذى قدر له فيما بعد أن يصبح أحد الخلفاء الأوائل الذين خلفوا النبى .

وفى عام ٦١٧ توفيت السيدة خديجة ولحق بها

أبو طالب على الاثر . وفى نفس الوقت دخل فى الاسلام واحد من أبرز القرشيين هو عمر بن الخطاب . ثم أسرى به صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ثم عرج الى السماء ، حيث رفع فى السموات السبع الى العرش ، وفى عروجه التقى بالانبياء السابقين آدم ونوح وهارون وموسى وابراهيم وعيسى ، وبعد ذلك بقليل لقى محمد جماعة من أهل يثرب التى تبعد حوالى ٢٧٠ ميلا الى الشمال من مكة ، فتلا عليهم القرآن ودعاهم الى الاسلام. وقد تأثروا كثيرا بما قال لهم . ولما رجعوا الى قومهم أقنعوا أهل المدينة بأن محمدا هو الرسول الذى كانوا ينتظرونه ، وبعد فترة أقبلت من المدينة جماعة قوامها سبعون رجلا وامرأتان بايعوا محمدا عند العقبة وهناك دعوه الى الانتقال الى مدينتهم . وقد كان هذا أول نصر ضخم . فقبل الرسول الدعوة على الفور ، وارسل واحدا من أصحابه وهو مصعب بن عمير مع مئة وخمسون من أتباعه لتمهيد الطريق . بعد عام من ذلك هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة على الرغم من تعقب المشركين له . ولكن العناية الالهية أعمت أبصارهم ، ووصل محمد فى رفقة صاحبه أبى بكر الى يثرب فى سلام فى سبتمبر عام ٦٢٢ .

تلك هى قصة الهجرة ، كما سميت رحلة النبى (صلى الله عليه وسلم) . وتأكيدا بشأنها باعتبارها نقطة التحول فى مولد الاسلام ، اعترف بها بعد ذلك بسبعة عشر عاما ، عندما قرر عمر بن الخطاب وهو خليفة للمسلمين أن يكون عام ٦٢٢ هو عام الهجرة ، والبداية الرسمية للتاريخ الاسلامى .

وقد أقام محمد أول الأمر مع تابعيه الذين ما لبث

ان سماهم الانصار ، فى ضاحية ليثرب ، حيث بنى اول مسجد . ثم انتقل بعد ذلك الى المدينة . وفى البقعة التى توقفت فيها ناقته انشأ مسجده بالقرب من دار ابى ايوب الانصارى . ولا شيء أوضح لبساطته أو مقته للترف أكثر من هذا البنيان البسيط الذى استخدم طيلة الاعوام الباقية من بعثته مكانا للعبـــادة والتعليم والراحة . كانت تحوطه جـدران من اللبن ، وتسند جذوع النخيل سقفه المتخذ من السعف . وكان المسكن ذاته مزودا بحصير من سعف النخيل كفراش وباباريق من الفخار . ولم يكن بالمسجد منبر ، فكان النبى يلقى خطبه متكئا على جذع نخلة ، فيتكلم بتؤدة واناة ، رافعا بصره الى السماء . وكان رســـول الله يعيش عيشة البساطة المتناهية ، كذلك الانصار الذين وطدوا روابط الأخوة بينهم وبين المهاجرين الوافدين اليهم من مكة ، فآووهم فى بيوتهم ، وقاسموهم اموالهم ، وهى عادة بقيت حتى اليوم فى المدينة المقدسة .

وقد طرأ على حياة محمد الآن تغيير أساسى . فلم يعد الامام الهادى والرسول المعلم فحسب بل أصبح الآن رائدا لاهل المـدينة لجماعة المسلمين فى يثرب وهم الاوس والخــزرج — لاقرار العـــدالة والحكم الصالح . واستجابة لهـــذه المهـام الجديدة ، عقــد معاهدة تحالف مع اليهود تعهد اليهود والمسلمون بمقتضاها الا يضايق اى فريق منهم الآخر وان يدافعوا عن المدينة ضد اى عدوان . وقد جعل محمد من بيت المقدس قبلة يولى المسلمون وجوههم شطرها فى الصلاة ، وقضى بان اراقة الدماء جريمة ضد الله . كما غير اسم يثرب الى مدينة نبى الله . وامر جميع المسلمين الصادقين بالصيام فيما

بين الفجر وغروب الشمس شهرا كل سنة ، وهو شهر رمضـــان ، والامتناع عن لعب الميسر وشرب الخمر ، وتحطيم كافة الصور المحفورة ، والصلاة خمس مرات كل يوم ، وأن يرجعـــوا اذا رابهم امر من الامور الى الله ورسوله والا يستنبئوا القداح وغيرها من الوسائل التى يمارسها العرافون .

بيد أن العهد الذى عقده مع اليهود فى المدينة لم يدم طويلا . فسرعان ما غدر بعض اليهود بالمسلمين وتآمروا عليهم ، اذا بهم احسوا ان ما نادى به الاسلام من المساواة بين البشر يهدد ثروتهم ، وأن رأى كثيرون منهم أن من الحكمة أن يتظاهروا بالولاء . وتملكت الغيرة عبد الله بن أبى من تزايد نفوذ محمد بين أهل المدينة . مع انه قد تظاهر بالاسلام نفاقا والتف حوله نفر آخر من المنافقين. وبدأ الفريقان فى التآمر مع الكفار فى مكة . وفى هذا الوقت نزل الوحى على محمد مرتين فى تلاحق سريع . الأولى حين امره الله بتحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، ثم نزلت بعد ذلك آية القتال فعزم الرسول على قتال المشركين وكل من يعادى الاسلام .

وبدأ محمد صراعه مع أهل مكة الكفار بمهاجمة قوافلهم وفى السنة الثانية للهجـــــرة دعا رسول الله (ص) المسلمين الى اعتراض قافلة مكية محملة بالنفائس وقـد قدر ما فيها من التجارة بخمسين الف دينار من الذهب وكان يقودها ابو سفيان وعندما بلغ قريش الخبر ، خرج منها ألف رجل للقتال . ولم يكن فى جيش محمد اكثر من ثلاثمـــائة من الرجال الأشـــداء والتقت القوتان المتضادتان فى بدر قرب المدينة . وقد بدأ القتال بمبارزة بين ثلاثة من الكفار ضد ثلاثة آخرين من المسلمين طبقا

لتقاليد الحرب . وكانت هذه البداية التمهيدية فى صالح المسلمين ، وعندما خر المحاربون الثلاثة المكيون صرعى نشبت المعركة بين الجيشين ، وبين صيحات التشجيع من نساء العـدو القى الكفار بأنفسهم على جيش المسلمين الصغير ، بيد أن المسلمين كانوا يتميزون على خصومهم بايمان دافق ورغبة صادقة فى الاستشهاد وأمدهم الله بنصر من عنده فلم يلبثـــوا أن هزموا الكفار على كثرة عددهم وزاد حماسهم عندما سمعوا رسول الله (ص) يقول « لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة »

ومنيت قريش بهزيمة ساحقة . وفى العام التالى ٦٢٥ دارت معركة احد التى تعادلت فيها الموازين . كانت عدة جيش قريش ثلاثة آلاف رجل . وقد قاموا بمناورة للتغلب على جيش عبد الله بن ابى بالانسحاب من الميدان على رأس ثلاثمائة من المنافقين ولكن ذلك لم يثبط عزيمة المسلمين . وكان الرسول (ص) قد امر عبد الله بن جبير قائد الرماة بأن يظل مع رجاله على نشز من الأرض لحماية المسلمين من فرسان قريش . ولكن الرماة خالفوا أمر الرسول فانقض خالد بن الوليد بفرسانه على المسلمين وأصاب منهم مقتلة كبيرة وعلى أثر ذلك ثبت الرسول (ص) ونادى المسلمين فتجمعوا حوله مرة أخرى وتمكنوا من افساد خطة أبى سفيان . وانتهى الأمر بانسحاب المشركين دون أن ينـالوا من المسلمين منالا .

وكان الكفار قد تمكنوا فى هذه المعركة من قتل نفر كبير من كبار المسلمين ، فحسب الناس ان المعركة كانت هزيمة للمدينة . وسرعان ما نشطت المؤامرات ضد أمة الاسلام

فى المدينة ولكن المسلمين انتصروا على أعدائهم فى كل لقاء .

والواقع ان أسلوب محمد (ص) فى الاحتفاظ بقوته والمبادرة الى لقاء الأعداء فى كل مناسبة برهنت على الحكمة . فبعد عامين زحف أبو سفيان على المدينة على رأس عشرة آلاف مقاتل فى محاولة للاجهاز عليه مرة والى الأبد . ولكن النبى عمل بمشورة سلمان الفارسى ، على تقوية دفاعات المدينة بحفر خندق من حولها ، واضطر أبو سفيان الى مواجهة حصار طويل . فاشتدت وطأة البرد على المحاصرين ونالت من حماسهم ، واقترن هذا بهبوب عاصفة عاتية ، ونشاط دعاية ذكية من جانب عيون المسلمين . فادت هذه العوامل جميعا الى تفكك فى صفوف العدو ، وهكذا خارت عزائمهم ، وانقلبت قريش عائدة الى ديارها .

وعقب انصراف المشركين وهم الاحزاب عن المدينة تبين محمد أن الوقت قد حان لادخال مكة فى الاسلام ولكنه رأى قبل ذلك أن يقضى على كل قوة لليهود فى المدينة نظرا لنياتهم المنكرة وتآمرهم على امة الاسلام ، وهكذا تم القضاء على جماعات اليهود الكبرى فى المدينة وأمن المسلمين على أنفسهم من غدر اليهود .

وكانت خطة محمد أول الأمر هى أخذ مكة سلما ، ولكن عندما أرسلت قريش خالدا بن الوليد مع قوة كبيرة لاستباقه ، انحاز محمد الى الدبلوماسية ، وأوفد عثمان زوج ابنته للتفاوض مع أبى سفيان . وقد تم الاتفاق على عقد هدنة تسمح للمسلمين بدخول مكة ، لكن ليس قبل العام التالى ، ولمدة ثلاثة أيام فقط ، وبدون أسلحة . وفضلا عن ذلك كان يتعين اذا أبق واحد من

قريش الى صفوف المسلمين .

وبعد أن فتح رسول الله خيبر وكانت معقلا من معاقل اليهود ، واطمأن من كل خطر يأتي من الشمال أرسل بكتبه الى ملوك عصره يدعوهم الى الاسلام ثم تم له فتح مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة .

وعندما دخل مكة عفا عمن كانوا يضطهدونه ، وسارع زعماء قريش الى الدخول في الاسلام . وقد عرف محمد بحصافته وذكائه كيف يستألف قلوب أولئك الكفار . فدخلوا في دين الله . وقد تجلت هذه الصفات على أوضحها فيما أصدر من أوامر بصدد الكعبة والحج . فبينما حقق حرفيا النبوءة القديمة بأن واحدا من نسل ابراهيم سوف يطهر يوما بيت الله في مكة بتحطيم أو ازالة كل أصنام قريش وتحريم كلّ صور أو تماثيل على هيئة البشر باعتبارها من الوثنية ، فقد أبقى الكعبة قبلة الحج ، والطواف سبع مرات حول الكعبة .

وبعد فتح مكة اخذت جماعات المسلمين تتزايد بالالوف ، وأصبح محمد قادرا على قبول جميع المنضوين تحت لواء الاسلام .

ولكن في الوقت الذي كان فيه الاسلام يتوطد سلطانه على هذه الصورة ، بدت على النبي أعراض المرض . وفي عام ٦٣٢ حج حجة الوداع التي قال فيها : « الا هل بلغت؟ اللهم فاشهد » . وبعد أيام قلائل من عودته الى المدينة فاضت روحه الطاهرة . وقد انقضت فترة لم يصدق فيها الناس الخبر ، وتوعد عمر أن يضرب بسيفه كل من يقول أن النبي قد مات . ولكن أبا بكر قال لغير المصدقين : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ،

ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت » . ثم تلا الآية : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » . فاقنعهم كلام ابى بكر ، ثم اختار المسلمون ابا بكر خلفا للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

والسؤال الآن هو : كيف استطاع رجل واحد ان يقود هذه الكثرة الهائلة من تابعيه لكي ينبذوا حياتهم القائمة على عبادة الاصنام والملذات ، مؤثرين عليها حياة صارمة وعرة قوامها الايمان الخالص ؟ من المؤكد ان السبب لم يكن هو عراقة المنبت ، لان كثيرين فى معسكر قريش المضاد كانوا كذلك من ذوى الحسب ، وكانوا اوفر نفوذا وسلطانا فى مكة والحجاز . ولا كان السبب هو هالة النجاح التى حفت به على طريق الظفر والانتصار . انما الجواب واحد : هو الاسلام ، بما قام عليه من اعلان صريح للتوحيد ، ولما انطوت عليه رسالته الروحية من دعوة الى العدل الاجتماعى ، وهى دعوة مست بصفة خاصة قلوب السـواد الأعظم فى الحجاز ممن كانوا مستضعفين فى الارض . وكانت دعوة الاسلام هى الحافز الاكبر وراء الفتوحات العربية الكبرى التى اعقبت وفاة النبى . وهكذا غيرت دعوة محمد بلاد العرب ؛ وحولت العرب انفسهم فى الشطر الاكبر من شبه الجزيرة الى أمة متحدة منظمة قادرة على الدفاع عن وطنها الام وتوسيع حدودها ، كما تجلى فى الاحداث التالية ، الى اقاصى الارض . ومن خلال القواعد الدينية للعقيدة غرس فى نفوس الطبقات الحاكمة فى الحجاز احساسا جديدا بالمسئولية حيال رعاياها ، وهيأ للجماهير المحرومة قاعدة جديدة للعدالة الاجتماعية .

ولعل اشد ما يستأثر بلب دارس التاريخ العربى من غير المسلمين انمـــا هو ما طبع عليه محمد من صفات الانسانية . كان أكثر الناس فهما للقصور البشرى ، ومن ثم كان أرحم الناس بالناس ، وكان عزوفا عن متاع الحياة ، وعند وفاته لم يترك سوى درع وقميص وعمامة وثوب مرقع وقـربة وحشية من سـعف النخيل . وكان نصيبه من الغنائم وهو الخمس ينفق كله فى سبيل الاسلام .

ولقد كان آية فى الرحمة حتى للعدو المنهزم ، واروع ما تجلى ذلك فى مكة والطـائف ، حين اقرت قريش بهزيمتها واصبحت اخوة له فى الاسلام .

هذا هو محمد اذن ــ الانسان العادى الذى اختاره الله رسولا وخاتما للنبيين ، والذى احس منذ صباه انه مدعو لتغيير العالم الشرير الفاسد الذى كان يعيش فيه ، والذى ادت رسالة الاسلام التى بعثه الله بها الى توحيد العرب فى عقيدة دينية قوامها الايمان بالله الواحد الاحد ، والذى أظفره الله على الأنانية والخرافة والجهالة ، ومكن لدعوته الخالدة أن تستأثر بقلوب مئات الملايين فى كافة الاقطار والامصار .

الفصل الثالث :

بدايات الامبراطورية

بوفاة محمد عاد العرب الى انماط حياتهم القديمة المتباعدة عن التمركز ، والمحببة للاستقلال القبلي ، والمتجافية عن كل سلطة مركزية ، ومن القبائل ما كرة الانظمة الجديدة التى استهدفت تغيير البنيان الاجتماعي وما جاء به الاسلام من خطر للحروب فيما بين المسلمين ، مما هدوه تهديدا لرياضتهم الأثيرة المشرقة على مدى الاجيال وهى التناحر القبلى التوارث . ونتيجة لهذا ولغيره من العوامل ، فانه عندما أصبح محمد غير مائل بينهم لكى يفرض رسالته بقوة شخصيته ، بدأت القبائل فى وسط وشرق البلاد العربية تنضو عنها لواء الاسلام وتطرد الولاة الموكلين بأمرهم .

قلنا ان أبا بكر انتخب خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقد اثبت أبو بكر انه اهل للمسئولية التى تولاها وقضى على حركة الردة . واستفاضت شهرة أبى بكر فى المشورة العادلة المنصفة والراى المجرد عن الهوى الى حد انه ما ان حلت هذه الحجج محلها فى النفس واستوعبتها .

وتوفى أبو بكر بعد عامين وخلفه عمر بن الخطاب . بيد انا أبا بكر على الرغم من كل وداعته ورقته كان بعيد النظر

بحيث ادرك أن أساليب القفاز الناعم لن تكون كافية لرد القبائل الى حظيرة الاسلام أو لدحر الادعياء فى شرق البلاد . فان هؤلاء المتمردين على كل قوة مركزية كانوا يتطلبون اجراءات اشد صرامة للسيطرة عليهم . وهكذا اتجه أبو بكر الى الجندى الذى طبع أثرا قويا فى نفوس المسلمين ، وهو خالد بن الوليد ، وارسله للتعامل مع هؤلاء الأدعياء .

لقد كان خالد ، كما بدا منه حتى الآن ، قائدا ممتازا ومخططا ضليعا فى التكتيك ، مع شجاعة لا تعرف الخوف وسداد تفكير ورباطة جاش بالغين فى اشد المعارك استعارا . ولم يتردد فى القضاء على مقاوميه بنفس الاسلوب الذى اتبعوه فى قتل المسلمين . ولكنه مع ذلك وضع حدودا واضحة فى معاملة اسرى الكفار ، فالذين دخلوا فى الدين عفا عنهم ، والذين اصروا على الكفر كان نصيبهم الردى .

ولقد أعطى أبو بكر قائده الفذ جيشا قوامه زهرة رجال مكة والمدينة ، واستطاع خالد فى غضون ستة اشهر ان يهزم اثنين من الادعياء فى شرقى بلاد العرب وأن يسحق من معهم من الخلفاء المتمردين . وقد لقى مقاومة عنيفة من قبيلتين ، وعلى الأخص من بنى حنيفة الذين ضيقو الخناق على المسلمين . ولكن خالدا الذى لم تفارقه رباطة جاشه فى اى وقت استنفر رجاله وقسمهم فريقين سواء من رجال القبائل أو من أبناء المدن بقصد اثارة المنافسة والحمية بينهم فى هجومهم المضاد ، ثم تقدم بجيشه

لقد تم الآن للاسلام اخضاع شبه الجزيرة العربية كلها ، وتحويلها الى قاعدة منيعة لنشر الاسلام فقد

أصبح العرب الآن في موقف يسمح لهم بالزحف الى ميادين جديدة . وبدا ان الشام وفلسطين والعراق هي أقرب وأسهل محط للأنظار . فقد كان لهذه الاقطار الثلاثة أكبر اهمية استراتيجية واقتصادية ، وكان بوسع من يستحوذ عليها ان يسيطر على المنافذ المؤدية الى آسيا الصغرى والى مصر وفارس . وقد وجد سكان الصحراء الفاتحون في مدائنها الجميلة ومراعيها الخصبة مغنما ابن مغنم . وفضلا عن ذلك فان الامبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان هذه الاقطار وهما بيزنطة وفارس كانتا قد تحاربتا في العهد الاخير الى حد انتهى به الموقف الى الجمود بعد أن دامت بينهما الحروب مدى ستة وعشرين عاما في صراع طويل بين هاتين القوتين المتنافستين . وكانت فارس قد استتبت لها الغلبة أول الامر عندما استولت عام ٦١٤ على بيت المقدس وانتزعتهـا من امبراطور القسطنطينية المسيحي . ولـكن بحلول عام ٦٢٨ استطاع البيزنطيون طرد الفـرس من فلسطين والشام ، وأوقفوهم فيما وراء نهر الفرات في العراق (أو كلديا كما كانت تسمى وقتئذ) .

ان هذه الحروب قد استنفدت طاقة الغالب ، والمغلوب معا . وانتهت بيزنطة الى الافلاس ، واضطرت اقتصادا في النفقات الى الاخذ بسياسة غير محببة وهي قطع معونتها الامبراطورية عن قبائل الحدود المجاورة . كما ان حالة الفوضى سادت بلاد الفرس ، حيث ترتب على هزيمة البلاد قتل خسرو بيد احد أبنائه بالاضافة الى غيره من الذكور من الأسرة المالكة . وقد لقي قاتل الاب مصرعه اغتيالا . وتداول على العرش تسعة آخرون من المطالبين فكان مصيرهم القتل هم ايضا او الاقصاء عن العرش . وكان آخر المنصبين على العـرش اميرا في

الخامسة عشرا من عمره يدعى يزدجرد كتب له أن ينجو من الإبادة . والى جانب هذا كله فان الحكام البيزنطيين والفرس كانوا قد أثاروا خصومة الغسانيين واللخميين لأسباب دينية كما أثاروا عاصفة من العداء في الشام والعراق بالغاء الاسر العربية المحلية الحاكمة وفرض حكام مباشرين من قبلهم . وهكذا فان من المحتم ، وقد بدت المغانم جزيلة بالاستيلاء على هذه الاقاليم ، ان يتجه العرب اثر انتصاراتهم الحديثة في شبه الجزيرة العربية الى هذه البلاد ، وان يعمـــدوا الى اغتنام هذه المزايا المتـــــاحة لهم في أراضي الامبراطوريتين المنهكتين في الشمال .

ولقد كان العرب منذ بداية صراعهم ضـــــد الفرس والبيزنطيين يحظون بالمزية التي تحظى بها في العصور الحديثة الأمم ذات السيطرة البحـــرية . وفي هذا الصدد كان البحر هو الصحراء . وفي حين كان العرب يستمتعون بقدرة كاملة للحركة في الصحراء وهي مجالهم الذي نشأوا فيه ، كان الفـــرس والروم عاجزين عن التحرك في الصحراء عجزا تاما . فمن ناحية كان العرب يستخدمون الجمال ، في حين كان خصومهم يركبون الخيل التي كانت قوة احتمالها في الظروف الصحراوية عند حدها الأدنى . ومن ناحية أخرى فان الغاء الاسر العربية الحاكمة في الشام والعراق كلف الروم والفرس فقدان معظم جنودهم العاملين في الصحراء بعد سحب القبائل تعاونها ومساعداتها احتجاجا على القضـــاء على البقعة البقية الباقية من الحكم الذاتي العربي .

وكذلك سجل العرب برغم التفـــوق الفني لجيوش خصومهم انتصارات رائعة على أعظم امبراطوريتين في

تلك العهود . واستطاعت جيوش المسلمين ان تفت من عزائم الروم والفرس وان تلقى في قلوبهم الرعب الى حد جعل مدائنهم وبلدانهم المحصنة تستسلم واحدة تلو الاخرى . وبهذا أثبتوا للعالم ما يمكن ان يحققه الايمان الخالص والاستبسال الفائق ضد القوى المتفوقة عددا وعدة .

وعلى الرغم من أن الهجوم العربي الرئيسي كان مقررا أن يوجه ضد الشام وفلسطين ، فقد وقع الاختيار على العراق لتكون الهدف الاول لجيوش الخليفة : من ناحية لكونها اقرب الى اراضي المسلمين ومن ناحية اخرى لان حالة الفوضى السائدة في ممتلكات الامبراطور الفارسي جعله يبدو في نظر العرب خصما أضعف من نظيره الامبراطور البيزنطي . وقد عين خالد قائدا للحملة التي اتجهت الى العراق في مارس من عام ٦٣٣ . ولدى اقترابه من الاراضي الفارسية وافاه أول بشير يوشك أن يصاحبه من نجاح ، وذلك عندما انضمت اليه تقريبا مما يعرف الآن بالحدود بين العراق والكويت قبيلة بني بكر تحت قيادة زعيمها المحارب الموهوب المثنى بن حارثة . وعلى الرغم من ان بني بكر كان منهم مسيحيون ، الا انهم كانوا في حالة تمرد سافر ضد الفرس منذ الغاء الاسرة الحـــــاكمة اللخمية في العراق ، وهكذا فانهم سارعوا الآن الى اعتنـــــاق دين الفاتحين المسلمين .

وقد تضاعفت قوة خالد ثلاثة أضـــعاف بهذه اللقية التي هبطت عليه ، وعندما تقدمت جيوش المسلمين في اتجاه وادي الفرات ، دعا هرمز الحاكم الفارسي في دلتا نهر الدجلة والفرات لاعتناق الاسلام أو مواجهة الهزيمة والموت . فما كان من هرمز الذي استخف كثيرا بجيش

المسلمين الا أن تقدم لملاقاته . وطبقا للقاعدة المرعية فقد تحدى خالدا لمنازلته قبل نشوب المعركة العامة ، ولكن خالدا اجهز عليه في يسر ، ودحر جيش الفـــرس المشدوهين وطاردهم حتى أبواب مدينة طيسفون ذاتها .

ولم يلبث الفرس أن قرروا مقاومة العرب بالعرب . فشكلوا جيشا من الفرس والعـــرب المسيحيين تقدم لدفع الغزاة . ولكنهم كانوا قاصرين ازاء عبقرية القائد المسلم في القيادة والمناورة . لقد جمعوا جيوشهم وقاموا بالهجوم ، وكادوا ينتصرون عندما تخلت عن خالد لأول مرة رباطة جاشه في المعركة ، فنذر اذا جاء النصر من عند الله أن يحيل دماء جيش العـدو الى نهر قرمزي . وعندما تضعضع الفرس في النهاية وانهاروا طوق خالد الأسرى وحز رقاب كتائب بأسرها منهم في قاع قناة جافة برا بنذره .

وعندئذ استأنف خالد تقدمه الى داخل العراق . وعملا بمشورة معاونه ومساعده الأول المثنى بن حارثة بأن « تقاتل العدو في الصحراء حيث ينعقد لك النصر ، والا فان هزمت وجدت الصحراء المعهودة والصديقة عند ظهرك » — فقد راح خالد يناور بقواته كأنها أسطول بحري يلم بسفنه على مبعدة من الشاطىء على امتداد سواحل العدو ثم يوجه حين يشاء ضربات خاطفة الى الداخل بسرعة وخفة حركة . وكانت مدينة الحيرة هي هدفه التالي ، وبعد حصار قصير الأمد قبل سكانها الذين كانت غالبيتهم من العرب شروط التسليم وهي منحهم حرية العبادة في مقابل أداء الجزية وتعهد المســـلمين بحماية المدينة . وكان لهـــذا الترفق من جانب خالد ما يبرره ، اذ كانت الحيرة مدينة قوية التحصين وذات

قدرة على المقاومة العنيدة ، وكان خالدا بحاجة اليها لتكون قاعدة لجيشه الذى لم يكن فقط فى قلب اراضى العدو ، ولكنه كان كذلك بعيدا عن ارض الوطن بنحو الف ميل وليس بينه وبين الحجاز سوى الصحراء المترامية . وقد تجلت مخاطر هذا البعد السحيق بخطوط المواصلات عقب الاستيلاء على الحيرة ، عندما تعرض جيش ثان ارسل لشد أزر خالد الى مضايقات شديدة من بعض القبائل المسيحية لدى دخوله العراق ، ولم يخلصه سوى أولئك الذين قدم هذا الجيش الاضافى لتعزيزهم .

وقد وجد خالد بعد عودته الى الحيرة ، اثر هذا التحول الطارىء ان الفرس قد استجمعوا قواهم وتأهبوا بهجوم جديد بالاشتراك مع حلفائهم العرب المسيحيين فى تجمع أكبر من كل ما مضى . فقرر ان يستخدم خطة جديدة ويهاجم عدوه ليلا . فما ان أخذ الفرس على غرة حتى لاذوا بالفرار مذعورين . وتهيأ الآن لخالد ان يغامر بالتقدم من جديد التماسا لفتوحات اخرى ، تاركا جيشه العربى الثانى للاشراف على قاعدته . فتقدم فى وادى الفرات حتى بلغ فيراد التى تبعد ثلاثمائة ميل عن الحيرة قبل ان يصادف أية مقاومة جدية . وكان النهر عند هذه النقطة يمثل الحد الفاصل بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، ولاول مرة اتحدت أهداف هاتين الامبراطوريتين المتنافستين عندما تحدت حاميتا الحدود من الروم والفرس خالدا أن يعبر النهر ويتقدم لمهاجمتها ، فتحداهما خالدا أن يفعلا ، وعندما عبرت القوة المشتركة نهر الفرات ظفر خالد بانتصار جديد ، وعينه الخليفة ، واليا على العراق ابتهاجا بهذا الانجاز .

وفى خلال ذلك كانت الاستعدادات فى الحجاز جارية بنشاط لفتح فلسطين التى كانت وقتها من الناحية الادارية جزءا من الشام واقصى اقليم فى طرفها الجنوبى. وقد حشدت لهذا الفرض قوة قوامها اربعة وعشرون الفا وضعت تحت القيادة العليا لابى عبيدة الذى كان احد المدافعين الرئيسيين عن خلافة أبو بكر للرسول. وقد قسمت القوة الى اربعة الوية ، اولها بقيادة عمرو بن العاص لغزو فلسطين بطريق العقبة ، والثانى بقيادة يزيد بن أبى سفيان والوالى على نجد والحجاز ، وكان عليه ان يزحف على دمشق ، وكان اللواءين الباقيين ان يكونا بمثابة قوة احتياطية . وكان كل لواء يضم مقاتلين أشداء مدربين تماما من ابناء المدينة ومكة ، وبينهم مائة ممن بقى على قيد الحياة من الثلاثمائة (الصحابين) المشهورين الذين هزموا أبو سفيان فى غزوة بدر . وهكذا لم يكن ثمة أدنى شك فى اقتدارهم أو شجاعتهم . لكن لئلا تطغى فورة حماستهم على حكمتهم ، فقد زودهم الخليفة أبو بكر قبل الزحف بتوجيهات محددة ذكرهم فيها بمسئوليتهم كحملة راية الاسلام فى اراضى الاجانب والكفار ، وشدد عليهم باحترام النساء والاطفال والشيوخ وعدم سلب المحاصيل أو الماشية او الابل ، والا يلجأوا الى الخداع او الخيانة او السرقة ، وأن يرعوا ويقيموا الحكم الصالح بين كافة الشعوب التى يفتحونها .

وكما حدث فى العراق فان غزو المسلمين لفلسطين قد ساعد عليه ما كان هناك من سخط سائد بين القبائل ضد حكامهم . وقد سار كل شىء على ما يرام فى أول الامر ، واستطاع عمرو باستخدام التكتيك الذى اتبعه خالد بنجاح ضد الفرس أن يفوز فى اشتباكين خاطفين ضد

الروم قرب العقبة وغزة . ولكنه عندما واصل هو ويزيد الزحف شمالا اخذت مقاومة البيزنطيين تشتد . ثم وجدا نفسيهما عاجزين عن التقدم وواجها خطــــر قطع طريق العودة عندما تخلى حاكم دومة العربي ، وهي في مؤخرة جيوش المسلمين وفي منتصف الطــريق بين فلسطين والعراق ، عن ولائه للاســــلام . وحين بلغ نبأ هـــذه المحنة مسامع الخليفة أمر (سيف الله) بالمسارعة الى نجدتهما . فخف خالد على راس تسعة آلاف رجل وشق طريقا طوله الف ميل عبر فيافي ومجــــاهل الصحراء الشامية الكبرى وسحق شيخ دومة المرتد ، وبعد انضمامه الى جيش عمرو عند اجنادين قرب بيت المقدس في شهر يوليو من عام ٦٣٤ ، استطاع أن يدحر جيشا مشتركا من الروم ورجال القبائل المسيحيين ناهز المائة الف رجل .

اصبحت فلسطين كلها الآن مفتوحة امام الغـــزو الاسلامي ، ولكن جيوشهم في الشرق تعرضت لضغط شديد بسبب نقص قوة الجند وخاصة في العراق بعد أن سحب خالد نخبة الجيش لتعزيز عمرو في فلسطين ، وكذلك بسبب حظر ابي بكر لانخراط القبائل المرتدة عن الاسلام اثر وفاة النبي في صفوف جيش المسلمين . وقد انتهز الفرس هذا الموقف وشنوا هجوما مضادا في اكتوبر عام ٦٣٤ استعانوا فيه بالفيلة لالقـــاء الرعب في نفوس العرب مما هيأ للقائد الفارسي رستم أن يتغلب على المثنى ابن حارثة نائب القائد وان يطرد جيشه الى خارج وادي الفرات بعد مجزرة رهيبة . وقد ادى هذا الى رفع الحظر عن رجال القبائل المرتدة ، وبهذه التعزيزات القوية الوافدة من الحجاز تهيأ للمثنى أن ينال انتقامه في العام التالي عند (البويب) قرب الحيرة ، ومرة اخرى رد الفـــرس واوقفهم عند أبواب طيسفون .

وفى هذه الأثناء كان خالد فى الشام يشدد الضغط زحفا الى دمشق الواقعة فى سهل خصيب والتى كان استيلاء جيوش الاسلام عليها يمثل غنيمة كبرى . وقد استطاع خالد بضم قوات أبى عبيدة الزاحفة من فلسطين الى قواته بلوغ هدفه فى شهر مارس من عام ٦٣٥ . وبعد حصار دام ستة اشهر ، وبمساعدة من بعض رجال الحامية الساخطين ، فتحت دمشق ابوابها ، واستسلم حاكمها البيزنطى .

وعملا بتوجيهات ابى بكر لجنوده عند الزحف ، كانت شروط الاستسلام ، التى قدر لها أن تصبح نموذجا يحتذى فى فتوحات الاسلام التالية ، بالغة الرفق بالنسبة للسكان . فقد امنهم خالد على حياتهم وممتلكاتهم وكنائسهم ، ووعد بالابقاء على سور مدينتهم ، وبعدم ايواء احد بين المسلمين فى بيوتهم ، وطالما أدوا الجزية فلن ينالهم الا الخير .

كان ذلك فى الحق جهدا بارعا للمسالمة ، بالتأكيد على المزايا والاعفاءات التى سيهيئها الفتح الاسلامى فى مقابل أداء الجزية ، وبنفى أية دلالة على ان غير المسلمين وغير العرب سيعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية . والواقع ان هذا الاعلان لم يحقق فقط الغاية منه وهى تسليم دمشق للفاتحين المسلمين ، بل ان ما قام عليه من موادعة وتسامح كان له كذلك أعمق الاثر فى نفوس القبائل المسيحية فى الشام ، الى حد ان جيوش العرب وجدت أصدقاء جددا لها فى كافة أرجاء الاقليم . وكان مقدرا ان تؤتى هذه المصادقة ثمارها الجزيلة باسرع مما كان خالد يتوقع . ذلك انه بعد ان واصل الزحف واستولى على حمص وبعلبك ، تدفق جيش بيزنطى جديد

يتراوح بين مائة ومائتى الف قادما من الاناضول واكتسح قوات الخليفـــة وردها الى نهر اليرموك فى فلسطين .
ورغبة فى بيان صدق نية المسلمين اعاد خالد وابو عبيدة الجزية لاهل البلدان التى كانوا يجلون عنها باعتبارها ان قواتهم لن تستطيع الوفاء بما التزمت به من حمـــاية السكان . وهكذا كان المسلمون فى ارتدادهم يجدون رجال القبائل فى كل مكان على استعداد لمساعدتهم بالمؤن والضن بكل مساعدة للروم .

وفى اغسطس عام ٦٣٦ توقف خالد عند ملتقى نهر اليرموك بالاردن . وقد ابرزت المعركة التى تلت بعد ذلك عبقرية خالد فى التكتيك . فقد استغل الى اقصى حـد هبوب عاصفة ترابية عنيفة والقى بقواته الاقل عددا من قوات العدو على هذا العدو الذى اعمته العاصفة واشاعت فى صفوفهم الفزع والفوضى والرعب . وفى هذه المعركة قاتل المسلمون كما لم يقاتلوا من قبل . وقد ظلت دائرة الرحى ثلاثة أيام الى أن ابيدت الجيوش المعادية من بكرة أبيها وقتل قائدها . ولم يعد لدى الامبراطور هرقل الذى جاء الى انطاكية للاشراف على المعركة التى كان يعلم انها ســـتقرر مصـــير الشـــام الا ان ينسحب عائدا الى القسطنطينية .

هكذا خرج الاسلام من معقله الصحراوى . لقد فتح العرب العراق وفلسطين والشام . وغدت دمشق وبيروت وحمص وانطاكية وحلب وصيدا تحـــكم باسم الخليفة فى مكة .

وقد استدعى خالد الى المدينة بعد أن اعاد فتح دمشق وكان ذلك فى عهد عمر الذى تولى الخلافة عام ٦٣٤ بعـد وفاة ابى بكر . وعين ابو عبيد واليا على الشام ، وعهد

الى عمرو بن العاص بالاستيلاء على بيت المقدس التى لم يفتحها العرب بعد دون كل فلسطين ، ولكنها الآن كانت ثمرة ناضجة ، ولم تلبث ان سقطت دون قتال فى يناير من عام ٦٣٧ . وقد كانت شروط الاستسلام مطابقة لما كان فى دمشق . ومرة اخـــرى عوهد المسيحيون على الا يتعرضوا لاية مضايقة ، وان تصان كنائسهم وصلبانهم . واستجابة لرجاء بطريق الروم المنهزم سوفرونيوس ، جاء عمر بشخصه لتوقيع المعـــاهدة ، وعلم الحشد المزدان بالملابس الفاخرة من القادة الاساقفة الذين كانوا فى انتظار وصوله عند ابواب المدينة درســـا فى التواضع ، بقبول استسلامهم وهو فى ثوب مرقع وعلى ظهر حمار .

واذا كان خالد قد اعفى بعد ذلك من قيادة جيوش المسلمين ، فلعل عمر اراد بهذا ان يجنب الناس فى مكة وفى البلاد التى فتحها الاسلام حديثا مغبة الظن بان الفضل فى نجاح الجيوش الاســـلامية يرجع الى خالد لا الى مشيئة الله . ولقد كان عمر لا يعرف الهوادة فى توطيد دعائم الدين . ولقد كان عمر هو الذى قال : « انما مثل العرب مثل جمل انف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده . واما انا فورب الكعبة لاحملهم على الطريق » . وهذا ما نهجه .

ذلك ان عمرا هو الذى وثق القواعد التى اراد بها النبى ان تحكم المسلمين . فقد لاحظ بعد وفاة النبى ان الحفاظ كادوا يندثرون ، فأمر زيدا كاتب النبى بجمـع القرآن ونسخه فى المصحف مرتبا حسبما كان الرسول يتلوه على لسان جبريل منزلا من عند الله . واصبح القرآن والحديث مصدر شريعته الاسلامية التى تنظم حياة المسلمين فى العبادات والمعاملات .

وبعد وفاة عمر وجدت نسخ أخرى متداولة ، فعمل خليفته عثمان على ايجاد نص واحد رسمي. وفي عام ٦٥١ عين زيد للقيام بواجب المراجعة ، وجمع النص الرسمي للقرآن نقلا عن الاصل الذي وجد عند حفصة بنت عمر احدى زوجات النبي ، فعاش القرآن الكريم عبر القرون كتاب الله الخالد وتجسيدا لكل علوم الاسلام وحكمته ولكل ما في اللغة العربية من بلاغة وبيان .

وكانت احدى النتائج المباشرة لهذا الجهد هي وضع الاساس لنظام تعليمي . وكان أوائل المعلمين في العصر الاسلامي هم قراء القرآن الذين بعث بهم عمر رسلا في كافة أرجاء بلاد العرب ، وكانت أولى المدارس هي تلك التي اقامها أولئك المعلمون في المساجد ، حيث كان يدعى الناس في كل يوم جمعة شبانا وشيبا بامر الخليفة للاستماع الى ترتيل القرآن . وقد ظل نظام التعليم العام مقصورا على هذه (المدارس الدينية) طوال المائة عام التالية أو يزيد ، ذلك ان الطبقات الحاكمة في تلك الفترة، مع بعض الاستثناء ، لم تكن تتميز برعايتها للتعليم ، وكانت تعد الصحراء ، التي كانوا يرسلون ابناءهم اليها للتعليم ، هي افضل المعاهد . ففيها كان الشباب يتلقى كل ما يعد صالحا له ــ اللغة العربية الفصحى للقبائل ، الى جانب طائفة من مقومات الرجولة مثل الفروسية والسباحة والرماية بالسهام . وفي عهد الخليفة عبد الملك ، جيء بمربين خصوصيين من البلاد الاجنبية لتعليم قواعد اللغة العربية . وبدأ عدد قليل من الأطباء في القيام ببحوث في الكيمياء والطب بالاعتماد على المصادر اليونانية والفارسية .

وهكذا ظل القرآن والمسجد هما الاساس للتعلم عند

العرب ، الى أن جاء الخلفـــاء العباسيون فبداوا عصر التعليم الكبير فى القرن التاسع بما أقاموه من اكاديميات التعليم العالى والعلوم ، بعد أن ظل التعليم مقصورا على مبادىء القراءة والكتابة وقواعد اللغة والشعر والحساب البسيط .

الفصل الرابع :

فتـح فـارس ومصــر

ترى ما هي القوى التي كانت وراء الفتوحات العربية والتوسع خارج شبه الجزيرة ؟ هل كانت الحوافز الدينية وحدها هي التي دفعت الى هذه الوثبة الكبرى ، ام كانت لاسباب اخرى اقتصادية واجتماعية كما ذهب الى هذا بعض المستشرقين ؟ في هذا الصدد يقول الجنرال جلوب في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) ان « الضغط السكاني والضروريات الاقتصادية ما كان يمكن وحدها ان تولد مثل هذا الانفجار البركاني . كان الامر يتطلب بواعث روحانية ومثالية عميقة متقدة لشبوب مثل هذه الفورة المتفجرة » . وعلى هذا كان اجمــــاع المؤرخين العرب ، الذين فسروا هذه الاحداث الجسام بانها تسلسل طبيعي بعثت عليه الحماسة الدينية ودوافعها الخالصة .

والواقع انه لم يكد يتم فتح الشام وفلسطين حتى أصدر عمر اوامره للقيــــام بهجوم جديد ضد العرس في العراق . ففي عام ٦٣٧ ، وبعد ان توفى المثنى متأثرا بالجراح التي اصيب بها في معركة البويب ، ارسل عمر واحدا من (صحابة) الرسول في موقعة بدر ــ وهوسعدبن ابي وقاص ــ على راس جيش يربو على ثلاثين الف رجل ، معززا بحملات من القبائل المحليه ، للهجوم والاستيلاء على

العاصمة الفارسية طيسفون .

وكان الامبراطور الفارسي يزدجرد شابا حاد الطبع أغضبه وصول وفد من العرب في ملابس خشنة من قبل سعد يدعوه الى اعتناق الاسلام ، فتجاهل نصح رستم وتحذيره وأمر جيشه بمهاجمة المسلمين القادمين . وكما أدرك قواده الأوفر حكمة انه ما كان يمكن ان يوقع نفسه بأكثر من هذا في أيدي العرب ، اذ بدلا من المجازفة بقواته في المناطق المكشوفة بالصحراء ، كان ينبغي له ادخارها خلف الاستحكامات الحصينة لعاصمته واستدراج العرب الى خارج معقلهم الطبيعي في الصحراء . بيد ان طبع الامبراطور الشاب الحاد تغلب عليه ، وفي شهر مارس من عام ٦٣٧ خرج الجيش الفارسي لاعتراض زحف المسلمين عند القادسية على بعد أميال قليلة غرب الحيرة في وادي الفرات . ومن مجلسه فوق عرش مذهب مظلل على ظهر أحد الفيلة باشر رستم ادارة العمليات عندما أخذ جيشه الذي قيل انه كان يربو على المائة الف يهبط على الغزاة . وقد احتدمت المعركة مدى أربعة أيام ، وفي أول الأمر كانت الكثرة العددية للفرس شديدة الوطأة على العرب . ولكن عندما بدأ رماة جيش سعد في تصويب سهامهم الى أعين الفيلة ، أخذت الحيوانات التي أعماها الرمي تتخبط على غير هدى وتدوس على صفوف رجالها . ولقد لقى رستم مصرعه بتشديد العرب لرمي السهام انتهازا لهذه المزية المفاجئة ، فتحطمت صفوف الفرس ولاذوا بالفرار ، تاركين غنائم جزيلة على أرض المعركة للمنتصرين .

وهكذا كانت هزيمة الجيش الفارسي الشامخ الذي رد الجيوش البيزنطية منذ سنوات قلائل الى أبواب القسطنطينية على أيدي رجال القبائل العرب . وقد

اصبحت العراق باكملها الآن تحت اقدام الجيوش الاسلامية ، وباحتلال الشام فى الشمال حتى جبال طوروس ، دق الآن اسفين بين الامبراطوريتين الكبيرتين . وقد فر يزدجرد من طيسفون ، وبانضمام القبائل المسيحية فى الشمال الى صفوف المسلمين بكاملهم ، استولى سعد على العاصمة الفارسية .

أخذت الامبراطورية الفارسية الآن تترنح ، ومع ان سعدا اراد مواصلة الزحف الى خراسان عبر جبال زاجروس ، فقد طالبه عمر بالتوقف خشية ان يتجاوز العرب حدود طاقتهم ويتعرضوا لخسران كل ما ظفروا به حتى الآن . وفى عام ٦٣٨ أقيمت قواعد حربية جديدة فى البصرة والكوفة فى وادى الفرات ، وأصبحت الكوفة بأمر الخليفة عاصمة العراق محل طيسفون .

على انه بمضى ثلاث سنوات اقتنع عمر بانه ان لم يضرب اولا فقد يعود يزدجرد بجيش اكبر لاخراج العرب . وهكذا انطلقت جيوش المسلمين مرة أخرى فتم الاستيلاء على الموصل عام ٦٤١ ، ثم تحولت الجيوش العربية شرقا عبر جبال زاجروس ، وعند نهاوند على حدود اذربيجان هزموا جيشا جرارا للفرس فقد ثلاثين الفا فى المعركة ثم ثلاثين الفا أخرى عندما طارد العرب فلولهم شرقا . وبحلول عام ٦٤٤ اجتاح الجيش الاسلامى المظفر ثلاثة ارباع أراضى ايران الحديثة ووطد حكمه فى ولايات (فارس) فى الجنوب العربى ، وفى خراسان الشمال الشرقى ، وفى اذربيجان فى الشمال الغربى . وقد أعقبت هذه الفتوح الجديدة دخول الناس فى دين الله أفواجا ، فقد نبذ الفرس عباد النار معتقدات زرادشت وتقاطروا لاعتناق الدين الاسلامى .

وفي خلال ذلك كانت الجيوش الاسلامية توجه اهتمامها الى الغرب . وكانت مصر تجتذب العرب كما اجتذبتهم الشام والعراق لاسباب اقتصادية واستراتيجية ، اذ كانت مصر احـــدى الممتلكات الثمينة للامبراطورية البيزنطية ، حتى كان الروم يعدونها مخزن الغـــلال الرئيسي لهم . ومن الناحية الاستراتيجية كان من الامور الحيوية انتزاع مصر من ايدى البيزنطيين ، بسبب قربها للحجاز بصورة لا تبعث على الاطمئنان ، ولان وجود ميناء الاسكندرية كاحدى القـــواعد الرئيسية للروم جعل في مقدور اسطولهم البحرى تهديد فتوح الاسلام الجديدة في فلسطين والشام . وبعكس ذلك لو تملك العرب دلتا النيل لكانت لهم قاعدة تمكنهم من مزيد من التوسع داخل الاراضي التي يحتلها البيزنطيون على امتـــداد ساحل افريقية الشمالي .

وهكذا كانت الخطوة التالية بعد الشام وفلسطين هي في اتجاه مصر . وفي عام ٦٣٩ أوفد عمر بن العاص على رأس جيش صغير قواته اربعة آلاف من الفرسان ـ ضوعف بعد ذلك الى عشرة آلاف ـ لادخال مصر تحت راية الدين الاسلامي .

ولقد قوبل عمرو ، مثل خالد في العراق ، باستقبال حار من القبائل المحلية حالما وصل الى الاراضي المصرية ، وتلقاه الاقباط بالتعاطف لما كانوا يلقون من أشد القمع على يد البطريق البيزنطي بسبب رفضهم التحول الى مذهب الـكنيسة الارذوكسية الرومية ، ولما اشتهر به المسلمون من تسامح حيال الديانات الاخرى .

وكان الهـدف الأول لعمرو هو حصن بابليون البيزنطي الكبير ، الذى كان قائما في موقع القاهرة الحديثة . وبعد

ان تقدم على امتداد الساحل من غزة واتجه الى الداخل بحذاء دلتا النيل ، انضمت اليه تعزيزات من (المدينة) ، وفيما بين ابريل ويوليو عام ٦٤٠ خاض ضد البيزنطيين عدة اشتباكات ناجحة باستدراجهم الى داخل الصحراء . ولكن احتماء البيزنطيين بحصنهم المنيع بعد كل مرة اطال الحرب وحتى آخر العام . ولكن ما أن نمى الى علم الحامية الرومية ان امبراطورهم هرقل قد توفى فى القسطنطينية حتى تخلى المدافعون عن القتال . وقد سمح لهم فى مقابل تسليم حصن بابليون بكل ما فيه من مؤن بالانسحاب عبر النيل تحت راية الهدنة . وبعد اربعة اشهر كان عمرو يزحف خلال الدلتا ويطرق ابواب الاسكندرية ، وبعد اربعة أخر ، فى نوفمبر عام ٦٤١ ، التمس المقوقس الصلح ، بعد أن ادرك نائب الملك هذا ان سياسة القمع والمد الاسلامى الغلاب قد جعلتا البلاد كلها ضده .

وعندئذ استسلمت الاسكندرية بالشروط المعتادة ـ توفير الحماية للمسيحيين واليهود فى مقابل الجزية والضرائب ، وسمح للجيش البيزنطى بالانسحاب بحرا الى القسطنطينية . وفى ذلك العهد كانت عاصمة مصر وهى الاسكندرية لا تسبقها سوى القسطنطينية جمالا وثراء . لقد استحدث تفوقها وبهاءها من امبراطوريتى روما وبيزنطة ، ومن قبلهما من الفاتحين الاغريق الذين اسسوها . كانت سماؤها الصافية تظلل منارتها الشهيرة فاروس التى كانت تعكس اشعة الشمس نهارا ونارها الهادية ليلا ، ومسلتى الجرانيت الضخمتين اللتين تقومان الآن فى سنترال بارك بمدينة نيويورك وعلى رصيف نهر التيمز فى لندن ، وكذلك المعبد الذى شيدته كليوباترا تكريما ليوليوس قيصر . ولا عجب اذا كان عمرو قد كتب الى الخليفة يبلغه بانه استولى على مدينة تجل عن

الوصف ، بما فيها من اربعة آلاف من الفيللات واربعة آلاف حمام ، واربعين الفـــا من اليهود سوف يؤدون الجزية .

وقد تم الآن احتلال مصر كلهـا حتى حدود النوبة ، واخضاع ليبيا ، بمـــا فيها مدينة طرابلس البيزنطية ، لنظام الجزية . وقد اثبت عمرو قدرته فى التنظيم الادارى عندما شرع فى دعم انتصاراته ، فبنى عاصمة جديدة سماها الفسطاط (هى الآن مصر القديمة) قرب بابليون حيث كانت القناة الفرعونية القديمة تصل النيل بالبحر الاحمر . وقد عين عمرو حاكما عسكريا ، وعهد الاشراف على الضرائب الى عبد الله ابن أبى سرج وهو أخ لعثمان فى الرضاعة . ولكن بعد ثلاث سنوات فقد عمرو منصبه بنهاية عهد عمر بن الخطاب الذى دام عشر سنوات على يد عبد فارسى طعنه بخنجر وهو يدخل مسجد (المدينة) ، توهما منه بانه تلقى من الخليفة حكما غير عادل بصدد نزاع مالى رفع اليه .

وقد خلفه عثمان صهر الرسول (ص) الذى انتخبه اهل الشورى الذين اختارهم عمر وهو على فراش الموت . وكان من أوائل أعماله استدعاء عمرو من مصر وتعيين اخيه فى الرضاعة عبد الله واليا مكانه . وفى عام ٦٤٥ استعاد الروم الاسكندرية . فسارع عثمان باعادة عمرو لاستعادة المدينة ، وبعد أن تم ذلك طلب منه البقاء فى قيادة الجيش مع بقاء عبد الله عاملا على بيت المال ، وبعد أن رفض عمرو هذا الوضع ثبت عبد الله واليا على مصر

وعلى هذا النهج سارت السياسة الجديدة فى ايثار الاقارب بالوظائف ، خصوصا من كانوا من بنى أمية ، حتى لقد ظفروا بكافة الوظائف الكبرى فى الحكومة

والجيش ، مما كان مثارا للنقد والسخط والمراره .

وبعد عشر سنوات تفاقم الحال فلجأ عثمان الى على يطلب عنده المشورة وكان محتجبا طوال هذه المدة . فكان من رأى على ان على الخليفة أن يعمل على (اصلاح البيت) لكى يستل سلاح الناقدين . فدعا الخليفة الى مؤتمر من ولاته فى الأقاليم ، ولكن عثمان لم يفعل وكان قد جاوز الثمانين من عمره وبدات نذر الثورة عليه .

ولم تمض أشهر قلائل حتى ثار أهل الكوفة ، ولكن ثورتهم اخمدت ، بيد ان روح الثورة سرعان ما انتقلت الى مصر ، حيث قام المتمردون بزعامة محمد بن ابى بكر يخلع الوالى عبد الله بن أبى سرح . وفى عام ٦٥٦ زحف جند مصر الى (المدينة) ولقيهم على ولامهم على الخروج على عثمان فلم يسمعوا له فلزم بيته ، وترك لولديه الحسن والحسين حراسة دار الخليفة .

كانت (المدينة) بغير حامية تسهر على حراستها فى هذه الفترة ، وكان معظم بنى أمية قد فروا من الحجاز عند اقتراب الثائرين . وهكذا تمكن المتمردون من محاصرة دار الخليفة ، وكان هدفهم حمله على التنازل وبهذا يتفادون سفك الدماء . ولم تؤد المفاوضات الى نتيجة ، فتسوروا البيت من السقف ، وطعن محمد واثنان من شركائه الخليفة حتى قضوا عليه . وبعد ثلاثة أيام دفن عثمان وهو بملابسه المخضبة بالدماء ، وكان ذلك ايذانا بفتنة كبرى .

الفصل الخامس :

الحـــــرب الأهلـيـــــة

بينما كانت الثورة ضد عثمـــــان تتجمع في العراق ومصر ، وكان العـــــرب قد قضوا على دولة الفرس واستولوا على الروم وعلى الشام ومصر ثم زحفوا الى تونس وهزموا جيشا كبيرا للروم جنوب قرطاجة، عاصمة شمال افريقية البيزنطية . وفي الشمال استولوا على قبرص وغزوا آسيا الصغرى ودمروا الاسطول البيزنطي على مقربة من شـــــاطئ الأناضول . ثم زحفوا الى ارمينيا وتوغلوا حتى البحر الأسود وانثنوا منه غربا حتى مسافة أميال قليلة من القسطنطينية . وفي الشرق اكتسحوا الجيوش الفـــــارسية وأزاحوها واندفعوا من خراسان للسيطرة على أفغانستان وتركستان . وعندما قتل كسرى يزدجرد عام ٦٥١ كان ذلك ايذانا بنهـــاية الدولة الفارسية التي ظلت مزدهرة مدى اثنى عشر قرنا .

ولكن قوة الدفع في حركة التوسع الاسلامي ما لبثت أن توقفت بمقتل عثمان . واصبحت العداوة التقليدية بين الامويين والهاشميين ثأرا دمويا ، وتحـــول العـــرب من قتال أعدائهم الى الاقتتال فيما بينهم ، وفي أثناء الصراع قتل طلحة والزبير . وأصبح علي بن أبي طالب هو المرشح الرئيسي للخلافة نودى به خليفة ، وقد طالب الأمويون بثأرهم من علي . وتزعمهم في ذلك معاوية بن

أبي سفيان ، الذى استطاع من خلال وجـــوده واليا وقائدا عاما فى الشام أكثر من خمسة عشرة سنة أن يكسب قلوب أهل الشام بحكمة المستنير . وكان أول عمل قام به معاوية من أعمال التحدى للخليفة الجديد هو تعليق قميص عثمان المخضب بالدم فى مسجد دمشق لاثارة روح الثأر . وعندما كتب اليه على يطلب منه الولاء رد عليه بورقة بيضاء .

ولم يستطع على ان يقطع برأى فى كيف يعالج هذا التحدى . ولكن التردد فى مثل هذا الموقف كان خطرا فان قبائل البدو غدت اقرب الى التمرد بعد ان وجدت أمامها مرة أخرى فرصة للعودة الى الفوضى . وبقى العراق وحده الذى بدأت فيه الثورة ضد عثمان على ولائه لنظام الحكم الجديد . ومع ذلك فان رد الفعل الوحيد الذى بدر من جانب على كان عزل ولاة عثمان عن البصرة واليمن ومصر

واخيرا تحرك الخليفة للعمل وســـارع الى الكوفة لحشد أنصاره . وقد انضمت اليه قبيلة بنى بكر ، وبعد وعد أهل الكوفة بأن مدينتهم ستصبح عاصـــمة الخلافة بدلا من (المدينة) ظفر بتأييدهم وجمعوا له جيشا قوامه عشرة آلاف رجل لسحق الثورة . ولكن عليا كره مهاجمة عائشة أم المؤمنين التى أنكرت خلافة على ، ولكن القتال وقع بين الجانبين قبل أن يحاول كسبها بالمفاوضات . وقد انتصر على وسميت المعركة فيما بعد وقعة الجمل . وقد قتل الزبير وهو يحاول الهرب ، واعيدت عائشة الى (المدينة) معززة مكرمة حيث توفيت بعد ذلك بأربعة عشر عاما وهى فى السادسة والستين .

وهنا بايع جند العراق عليا خليفة غير منازع أما فى

الشام فكان عليه أن يحسب حساب معاوية الذي رفع راية قميص عثمان الملطخ بالدم لحشد جيش متزايد من انصار الأمويين . ولم تجد كل محاولات علي لكسب ولاء المدافع الجديد عن البيت الأموي أذنا صاغية من معاوية ، وفي النهاية صمم على أن يزحف الى الشام ، وفي ابريل من عام ٦٥٧ التقى وهو على رأس جيش من خمسين ألفا بجيش معاوية من أهل الشام عند صفين على نهر الفرات . وقد أشرف علي على الانتصار عندما لجأ عمرو بن العاص القائد الثاني في جيش معاوية الى خدعة هي رفع المصاحف فوق رماح الجند . وفي الحال توقف رجال علي عن القتال بعد أن فسروا هذه البادرة على الوجه الذي أريد لها باعتبارها نداء الى تحكيم القرآن . وقد اضطر علي الى الموافقة على حل الخلاف بالاحتكام الى كتاب الله .

وعندما اجتمع الحكمان بعد ستة أشهر كان مندوب علي شيخا ساذجا غير محنك في السياسة بالقياس الى عمرو مندوب معاوية ، فقد وافق مع عمرو على خلع كل من موكليهما من الخلافة ، وهي حيلة جعلت عليا هو الخاسر الحقيقي ، اذ ان معاوية لم يكن مطالبا بالخلافة . وقد قامت الآن بين الاثنين المتنافسين هدنة مسلحة ، كان فيها معاوية مسيطرا على الشام ، وعلي معترفا به العراق وفارس ومصر والحجاز .

ولم يلبث معاوية أن شرع في فصم عرى ولاء اقاليم أخرى للكوفة ، فبدأ بمصر التي ارسل اليها عمرو بن العاص مرة أخرى مع قوة من الأمويين حيث نصب عمرو نفسه واليا عليها من قبل معاوية . وعندما اطمأن معاوية من ناحية مصر زحف على شمالي العراق ، في حين كانت

جيوش الخليفة تقف موقفا سلبيا ، وكانت الخطوة التالية هى الزحف الى بقية العراق ذاته ، واستطاع معاوية اثارة أهل البصرة على الخليفة ، كما ارسل قوة من ثلاثة آلاف رجل الى المدينة ومكة ، حيث اعتلى قائدها المنبر وتوعد بالموت كل من لا يقسم بالولاء لمعاوية .

وبحلول عام ٦٦٠ ادت هذه الغارات الأموية الى انحسار رقعة سلطان علي حتى اقتصرت على فارس وركن صغير من العراق كانت الكوفة مركزه ، ونادى معاوية بنفسه خليفة فى بيت المقدس . واخذ أنصار علي ينفضون عنه بسرعة أو ينضمون الى الأمويين أو يلوذون بالاختفاء . وعند هذه المرحلة ظهرت فى العراق طائفة جديدة من المنشقين سميت (بالخوارج) ، وقد رفض هؤلاء الاعتراف بكل من علي او معاوية خليفة ، واقسموا ان يقتلوا فى وقت واحد الخليفة فى الكوفة ، ومعاوية فى دمشق ، وعمرو فى مصر . وقد تحرك علي لاستئصال هذا التهديد فى المهد ، فهاجم معسكر الخوارج فى نهروان . لكن على الرغم من أنهم منوا بهزيمة ساحقة . فقد رفض هؤلاء الخوارج التسليم ، وفى يناير عام ٦٦١ هاجم واحد منهم الخليفة بسيف مسموم قرب مسجد الكوفة . وحاول آخر قتل معاوية فى دمشق ، وفى مصر أخطأ القاتل الثالث عمرو وقتل شخصا آخر ، وهكذا بقى معاوية وحده فى الميدان .

***

فى الوقت الذى استشهد على على هذه الصورة ، كان معاوية حاكما لا ينازعه أحد فى الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وبدأ يطبق على العراق . وكانت

الكوفة وخراسان هما اللتان لم تعترفا بحكمه . ولكن ذلك لم يدم طويلا .

لقد اختار اهل الكوفة الحسن بن علي خليفة اثر وفاة أبيه ، تكريما لذكراه، وآثر الحسن أن يجعل مقره في العاصمة الفارسية القديمة طيسفون . ثم أرسل جيشا من الكوفة ضد معاوية ، ولكن عندما ترامت الشائعات الى طيسفون بهزيمة هذا الجيش ، بادر الحسن بالتنازل لصالح معـــاوية ، وانسحب الى (المـدينة) حيث أقام بها ثم مات بعد قليل .

لقد نقلت الآن عاصمة الخلافة رسميا الى دمشق ، حيث ظلت بها طيلة تسع وثمانين سنة . كما أن معاوية اضطلع باصلاحات ادارية معينة استهدف منها تنظيم حكومة الدولة وتحديثها . كانت دولة الاســـلام حتى وقتئذ مقسمة الى وحـــــدات ادارية او ولايات مطابقة بصـــفة عامة لتقســـيمات الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . وكانت كل من بلاد الشـــام وفلسطين والعراق ولاية قائمة بذاتهـــا وكذلك كانت العراق ، وخراسان ، البحرين وعمــــان ، وشرق فارس ، والحجاز ، وارمينيا ، ومصر ، وشمال افريقيا ولايات لها عمالها ، واخيرا اليمن وجنوب البلا العربية ، فجعل من هذه التقسيمات الثقيلة العبء خمس ولايات : ولاية العراق ، وتشمل الشام وشرق البلاد العربية وقد وضعت تحت اشراف وال واحد وجعلت الكوفة عاصمة لها .

وبالمثل ادمجت الحجاز واليمن وجنوب البلاد العربية في ولاية واحدة . ووسعت ولاية ارمينيا لكي تشمل اقليم الجزيرة فيما بين نهري الدجلة والفـــرات ، وضمت كل من مصر وشمال افريقيـــة وغرب وشرق فارس في ولاية واحدة .

وكان معاوية ايضا هو أول خليفة عمل على تفويض السلطة . فلم تعد وظائف الحكومة الثلاث وهي الادارة السياسية وجبـــاية الضرائب والامامة مركزة في يد الخليفة ، ولكن عهد بكل منها الى عامل معين . وأصبح الولاة احرارا في تعيين نواب لهم في نطاق ولاياتهم دون الرجوع الى دمشق . وبدلا من تصريف شــئون القضاء بمعرفة الخليفة شخصيا كما كان يفعل اوائل الخلفاء عين قضاة مستقلين في سائر ارجاء الدولة . كمـــا أنشأ ديوانا للحكومة ، ونظاما للبريد وحفظ الوثائق الحكومية لمواجهة حجم المراســـلات المتزايدة وضمانا للمحافظة على الوثائق الرسمية .

وفي نفس الوقت شرع معاوية في تقليص آخر معقل لقوة العلويين في الشرق . فدعا والي علي في فارس وهو زياد بن أبيه الى دمشق حيث أغدق عليه الكثير ، وبعد ذلك عرض عليه ولاية الامبراطورية الشرقية بكاملها عليه . وقد انضم زياد وهو ابن غير شرعي لابي سفيان الى معاوية ، ولا سيما حين عرض عليه معاوية الاعتراف به اخا شرعيا له . وعندما رجع الى دائرة ولايته المتضخمة ، شكل زياد أول قــوة للشرطة في الامبراطورية العـــــربية واستخدمها في تعقب الشيعة الناصرين للحسين بن علي . وقد ادت سياسة القمع التي انتهجها زياد الى بسط سلطان معاوية على الاقاليم الشرقية كلها .

وبعد أن أحكم معاوية قبضته على القاعدة الداخلية وجه الجيوش العربية الى الهجوم في جميع الاتجاهات مرة أخرى . فعلى جبهة الروم استغل السيطرة البحرية التي توطدت للعرب منذ الاستيلاء على القــــواعد البحرية البيزنطية في الاســـكندرية وقبرص وتدمير الاســطول

البيزنطي ، لقيام العـــرب بالاغارة على صقلية ورودس والابحار حتى الدردنيل لمهاجمة القسطنطينية ذاتهـــا ، وان لم يتيسر لهم التأثير في هذه القلعة المنيعة . وفي الشرق عبر العرب نهر جيحون الى ازبكستان واغاروا على بخارى ، وادخلوا مدينتي بلخ وهراة القـــديمتين في افغانستان تحت سيطرة الاسلام ودعموا حكم المسلمين حتى ضفاف نهر السند . وفي افريقية عهد الى عقبة بن نافع ابن أخ عمرو . بتعزيز حدود الامبراطورية غربا الى أبعد حد ممكن . ذلك انه حتى ذلك الحين ، وبسبب حاجة العرب الى قاعدة لهم اقرب من الفسطاط في مصر ـ وهو ما يعني وجود خط للمواصلات طوله الف وخمسمائة ميل تحت رحمة العـــدو وهجماته باستمرار ـ كانت الجيوش العربية التي تصـــل الى أية مسافة على امتداد الشاطيء الشمالي لافريقية تضطر الى العودة . واذن فقد قام عقبة في عام ٦٧٠ بانشاء العـاصمة العسـكرية الحصينة وهي القيروان في تونس ، في منتصف المسافة بين مصر وبين أقصى نقطة لشمال افريقية البيزنطي في مراكش ، ومن القيروان اقام سلسلة من الاستحكامات شرقا وغربا لمنع هجمات الجيوش البيزنطية من قرطاجة وغارات قبائل البربر من داخل الاراضي الجبلية التي لم تفتح بعد . وبعد تحييد تونس على هذه الصورة تقدم عقبة مواصلا زحفه عام ٦٨٣ الى مراكش ، حيث استولى على طنجة واحتل الساحل الاطلسي حتى اغادير جنوبا . ولكنه وجد نفسه ، كما حدث للفاتحين العرب السابقين في طرابلس وتونس ، بعيـــدا عن قاعدته بمسافة الف ميل ، وعلى الرغم من انه قوبل بمقاومة قليلة في زحفه ، فان خط مواصلاته الطويل والمجرد من الحماية ، اقتضاه من باب الحكمة ان ينسحب الى القيروان . ولما كان يتوقع

ان يصادف مقاومة قليلة في عودته كالتي صادفها في زحفه الهجومي ، فقد قسم قوته الى عدة ألوية صغيرة بهدف تغطية وتهدئة أكبر ما يمكن من المناطق الواقعة الى الغرب من تونس . ولكنه في هذا ارتكب غلطة خطيرة ، فعند بسكرة في شرق الجزائر وقع هو وجنود لوائه في كمين من قوة كبيرة من البربر وذبحوا على بكرة أبيهم . وظل شمال افريقية في مدى الخمس والعشرين سنة التالية من طنجة الى طرابلس لا يعرف سوى حكم قبائل البربر القاسي ، باستثناء جيوب معزولة قليلة للبيزنطيين قبل قرطاجة .

وبينما كانت معركة التوسع على اشدها في كل هذه الجبهات . كان معاوية في دمشق يضع خططا دقيقة لضمان الاستقرار الامبراطورية بعد وفاته . فلكي يتفادى تكرار الحرب الأهلية التي أعقبت مقتل عثمان وكادت أن تؤدي الى تمزيق الامبراطورية الوليدة ، عقد عزمه على أن ينبذ نهائيا القاعدة الانتخابية وأن يؤسس نظاما للحكم يتعاقب فيه الخلفاء بالوراثة وذلك بتعيين ابنه يزيد خلفا له . وقد قبل اهل الشام هذا الاقتراح ، كما كانوا يفعلون ازاء أي شيء يعرض عليهم . ولم تعترض العراق بوجود زياد مسيطرا عليها . ولكن بعرض القضية على المدينة ومكة ، فان الحسين بن على الأصغر ، لكي يبين ان الثار بين الامويين والهاشميين لم ينته بموت أبيه وبتنازل اخيه عن الخلافة ، قد اعترض بشدة على ماسماه تقليدا غير ديمقراطي للنظام الروحي والروماني . ولما كان يوسع الحسين بالطبع كحفيد للنبي ان يعتمد على تأييد شعبي ضخم في الحجاز ، فقد قرر معاوية أن يتجاهل معارضة هذا المعترض الذي يحظى بالتوقير ،

لا أن يعمد الى الاكراه ، وهكذا نودى بيزيد وريثـــا للخليفة .

ولكن هذا الاسلوب من جانب معـاوية فسر في مكة والمدينة على انه ضعف ، غير ان هدفه كان تفادى قيام حرب اهلية اخرى ، ولا سيما انه قد جاوز الآن السبعين من عمره ، وكان يؤثر عدم الالتجاء الى القوة اذا بدا له ان غايته يمكن أن تتحقق بأساليب اخرى .

ولقـــد ادرك وهو على فراش الموت فى عام ٦٨٠ ان اسلوبه فى تجاهل خصومه الهاشمين لم يؤت ثمرته . وحذر وريثه يزيد من ان الحسين قد يحاول الاستيلاء على الملك ، ولكنه نصحه بأن يتعامل معه برفق اذ يجرى فى عروقه دم الرسول . كما حذر يزيدا من عبد الله بن الزبير، وهو عــدو لدود للأمويين ، وقد قاد أبوه وعمه الزبير ومحمد بن أبي بكر ، الثورة ضد عثمان . والواقع انه لم يكد يصدر هذا النذير حتى نادى عبد الله بن الزبير بنفسه خليفة فى مكة ، وترك حسين (المدينة) الى الكوفة مع حرس من سبعين من الشيعة لاشـــعال ثورة العراق والاستيلاء على الخلافة من يزيد . ولكن مبادرة والى الكوفة عبيد الله بن زياد حالت دون وصول الحسين الى الـكوفة ، فانسحب الى الـكربلاء التى تبعد خمسين ميلا الى الشمال ، لكي يتدبر خطوته التالية . وقد أوفـد اليه عبيد الله رسولا يدعوه الى الاستسلام ، فلجأ الحسين الى كسب الوقت املا فى جمع القبائل تحت لوائه . ويبد ان عبيد الله الذى فطن الى نواياه أمر بمحـــاصرة معسكره . وقد تعددت الروايات وتضـاربت فى وصف حقيقة المعركة التى تلت بعد ذلك . ولكن يبدو انه على الرغم من ان قوة الحسين القليلة كانت تواجه قوة تفوقها

عددا بنسبة خمسين الى واحد ، فان القوة الصغيرة صدت جنود الكوفة مدى ساعات كثيرة . وعنــــدما استنفدت كافة الاســـــاليب والحيل الدفاعية وخر كافة اتباع الحسين صرعى ، واجه اعداءه بمفرده . فقد حمل على الكوفيين الذين تملكتهم الدهشة حملة شديدة حتى شق صفوفهم ببسالته المستميت ، الى ان سقط بضربه سيف فى العنق . وقد خر راسه ومثل بجسده بأمر من عبيد الله وترك جثمانه للجوارح . اما الراس فقد احتفظ به وقيل انه دفن فيما بعد فى قبر بكربلاء التى أصبحت مدينة مقدسة فى العراق .

الفصل السادس :

الإرهاب والفتح في الشرق

كان على يزيد بعد استشهاد الحسين ان يواجه النتائج المتفجرة لانتصاره في العراق . وكان عليه فضلا عن ذلك ان يحسب حساب عبد الله بن الزبير في مكة . ولكنه لم يعالج كلا الأمرين علاجا فعالا ، اذ كان شابا يؤثر التمتع بالحياة .

وفي غضون ذلك كان ثار الدم الذي أهاجه استشهاد الحسين يفور الى حد يقرب من درجة الغليان ، وفي الحجاز ازدهرت مكانة عبد الله بحملاته الشعواء على الاموين . ولكن يزيدا ظل على تردده مدى عامين ، ولم يحزم أمره الا عندما انضمت المدينة الى مكة في التمرد ، وخلع عبد الله الوالي ، واعتقل الفا من الامويين . عندئذ بعث من الشام بحملة تأديبية كان فيها كثيرون من العرب المسيحيين ، فاستولت على (المدينة) وزحف الى مكة حيث حاصرت المسجد الحرام وضربته بالمجانيق ، وفي هذا الحصار اشتعلت النار في الكعبة وأصيب الحجر الاسود بصدوع . ولكن المهاجمين ما لبثوا بعد شهرين حين علموا بوفاة الخليفة ان انسحبوا عائدين ادراجهم ، في نوفمبر من عام ٦٨٣ .

لقد أصبح عبد الله بن الزبير الآن حاكما غير منازع

فى الحجاز . وقد انتهز فرصة مرض معاوية الثائر بن يزيد فنال اعتراف العراق به خليفة ، حيث أرسل أخاه مصعب ممثلا له ، وكذلك اعتراف مصر وجنــوب بلاد العرب ، وجزء من الشام ذاتهـــا . وهكذا بات الامويون يرتجفون أمام زحف الهاشميين المنتقمين .

ولكن الموقف تغير باختيـــار الامويين خليفة آخر من الاسرة الاموية هو عبد الملك بن مروان ، الذى نشط على الفور لتعويض خسائر الاسرة ، واختار لتأكيد سلطانه على أهل العراق المتمردين المتقلبين رجلا قاسيا لا يرحم هو الحاج بن يوسف الذى كان معلما سابقا فى الطائف ومن قبيلة قيس فى وادى الفـــرات . وعندما بعث به لاستئناف حصار مكة استخدم الحجاج المجانيق باشد ضراوة مما فعل رجال يزيد . وقد سقطت مكة بعد ستة اشهر ، وقتل عبد الله بن الزبير وهو يقاتل حتى النهاية بشجاعة الاسود .

وبوفاة ابن الزبير بدا الهاشميون يقتتلون فيما بينهم . فـ ا رع عبد الملك الى اخذ المبادرة فى يده ، ورغبة منه فى تحويل الحج عن معقل الهاشميين فى مكة ، فقد بنى مسجدا فخما فى بيت المقـــدس سماه قبة الصخرة ، وقرب تمامه شفع هذا بارسال حملة الى مدينة الكوفة المتمردة ، تمكنت بعد وعود بالعفـــو من هزيمة الوالى الهاشمى فى عام ٦٩١ .

بهذا انتهت الحرب الاهلية الثـــانية ، وانتصر البيت الاموى ، ولم تعد شبه الجزيرة العربية مركز السلطان والحكم فى العالم العربى . وشرع عبـــد الملك فى تعزيز سيطرة دمشق . فاجرى عددا من التغييرات الاساسية فى نظام الحكومة استكمالا لما بداه معاوية ، مستهدفا وضع

مقاليد الأمور في أيدى العرب والتقليل من تأثير الروم والفرس فى تصريف شئون الخلافة . وكان في طليعة إصلاحاته مرسوم باحلال اللغة العربية محل اللغتين اليونانية والفارسية باعتبارها اللغة الرسمية في الشام والعراق ، وكانت النتيجة هى تقلد الموظفين العرب بالتدريج لنطاق كبير من الأعمال في الاداة الحكومية مما كان يشغله الروم والفرس ، وخاصة في شئون المالية والضرائب والادارة . وكان الخليفة الجديد هو أول من سك عملة عربية محل العملات الرومانية والفارسية التى كانت حتى ذلك الحين وسيلة التبادل ، وقد بدأ بالدرهم الفضى والدينار الذهبى .

وفي الامبراطورية الشرقية عقد عبد الملك العزم على سحق الاضطرابات الشيعية نهائيا . ولهذا الفرض اتجه الى الحجاج ، الذى راى ان نجاحه في قمع العلويين فى الحجاز أثناء العامين اللذين امضاهما واليا في بلاد العرب يؤهله لكي يحكم الشرق بالقبضة الحديدية . ومنذ وصول الحجاج الى الكوفة اظهر لرعاياه ما يدخره لهم . فقد توجه الى المسجد مباشرة وصعد واعتلى المنبر ونزع عمامته عن رأسه والقى خطبة نارية مشهورة قال فيها : « ارى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها » .

وكان لتهديده الوحشى اثره المنشود ، وخاصة بعد ان أعقبه بقمع تمرد في البصرة بأشد همجية. ومنذ ذلك الحين قدر للامبراطورية الشرقية أن تكابد حكما ارهابيا لا نظير له . فقد كان الناس يعدمون او يسجنون لأدنى شبهة في التعاطف مع العلويين أو مناهضة نظام الحكم الأموى . وقيل انه في غضون ولاية الحجاج للعراق وفارس التى دامت اثنين وعشرين عاما ، أعدم ما لا يقل

عن مائة وعشرين الف شـخص ، ووجد فى السجن عند وفاته ثمانون الفا .

ولكن برغم ذلك فان ماعده اهل العراق (احتلالا اجنبيا) قد ضاعف من حقدهم على سادتهم أهل الشام ، وحنينهم الى قيام احياء علوى . وفى عام ٧٠١ وجد العلويون قائدا فى شخص عبد الرحمن بن الاشعث الذى كان قائدا سابقا فى جيش على وكان رابضا فى خراسان منذ انتزاع معاوية السلطة . وقد زحف إبن الاشعث على راس قوة كبرى سميت (بجيش الطاووس) لفخامة زيها متجها الى العراق وعبر نهر الدجلة . وسرعان ما فتحت البصرة ابوابها له حفاوة بالمحرز الذى جاء لانقـاذها من عسف الحجاج . ولكن انتصار العلويين كان قصير الأمد . فقد استرد اعداؤهم البصرة بعد تعـزيزات قدمت من الشام ، وقيل ان احد عشر الفا من سكانها دفعوا حياتهم ثمنا لمساعدة المتمردين . وقـد ضم (جيش الطاووس) صفوفه من جديد خارج البصرة ، ولكن الشـاميين كانوا اقوى منهم ، وفى الفوضى التى سادت اثر ذلك نجا ابن الاشعث بمعجزة هربا الى خراسان ، وطورد اتباعه وقتلوا تقتيلا على يد قتيبة بن مسلم ، والى الحجاج .

كان قتيبة محاربا قبليا يماثل الحجاج فى قساوته ، حتى تشمل الوديان الخضراء والبساتين النضرة والمدائن الجميلة التى تواترت الروايات عن وجودها فيما وراء نهر جيحون ، وقـد وجد فى شخص قائد لامع مثل قتيبة الأداة التى تحقق غايته . وهكذا اطلق الحجاج قتيبة عام ٧٠٥ ، بعد اعادة الهدوء الى العراق وفارس ، فى اتجاه الشرق على راس جيش يربو على خمسـين الف مقاتل . وفى السنوات العشر التى تلت ذلك ، لم تكن

تمضى سنة دون أن تمتد حدود الامبراطورية العربية الى ما وراء فارس الجنوبية للاتحاد السوفييتي . بل ان جهود خالد بن الوليد وعمرو بن العاص تبدو شاحبة أمام فتوحات قتيبة الذى انطلق جنوده المدرعون ينهالون بقذائفهم من المجانيق والكباش - وهى صواريخ العصور الوسطى - على مدائن تركستان وازبكستان . وقد استولوا على بخارى وسمرقند ، واكتسحوا الاقاليم الشرقية حتى استولوا على فرغانة وخوارزم ، ثم وصلوا فى النهاية الى حدود الصين عند قشغر .

وعلى الجناح الجنوبى لقتيبة لم يكن محمد بن قاسم صهر الحجاج أقل نجاحا عندما اجتاح ما يعرف الآن بباكستان عام ٧١٠ ، واعتنق أهلها الاسلام . ومع ان مطامع الحجاج كانت ترنو الى الصين ، الا ان أحداً من قائديه ، قتيبة أو ابن مسلم ، لم يستطع ان يتقدم أكثر من ذلك ، وبقيت الحدود الشرقية للامبراطورية العربية عند قشغر وطشقند .

لكن اذا كان الحجاج قد أسهم الى هذا الحد الكبير فى توسيع رقعة الامبراطورية العربية شرقا ، فقد كان من المحتم أن يثمر حكم الارهاب الذى فرضه ثماره المريرة . بيد أنه توفى عام ٧١٤ بسرطان المعدة ، وترك لغيره من الحكام الامويين أن يكابدوا النقمة والانتقام اللذين ولدتهما سياسته ، وخاصة من جانب الشيعة فى العراق وفارس ، ومن الموالى الذين كانوا يعدون انفسهم مهضومى الحقوق .

الفصل السابع :

المــــــد الأمـــــوى
ثـــم إنحســـــــاره

في الوقت الذى كان فيه قتيبة ومحمـــد بن قاسم يكتسحان بجيوشهما اقطار آسيا الوسطى ، كان هنـــاك جيش عربى آخر يحتشد لبسط حدود الاســـلام فى الغرب . فبعد أن ولى الوليد الأول الخلافة عام ٧٠٥ ، عين عمه والى مصر موسى بن نصير واليــــا على الاقاليم الغربية . وكان شمال أفريقية من طرابلس حتى المغرب قد انتقلت بعد وفاة عقبة فى الجزائر عام ٦٨٣ الى حكم البربر ، واضطر العرب الى الجـــلاء عن عاصمتهم الغربية الجديدة فى القيروان . وكان البربر يغـيرون على السهول كما يحلو لهم من مخابئهم الجبلية ، حيث كان العرب يعجزون عن تعقبهم . وفى نهـــاية القرن السابع تغير الموقف يسيرا واستطاع العرب اعادة الهـــدوء الى المناطق الساحلية حتى تونس وأن يستردوا القيروان ، بيد انهم لم يتمكنوا الا بعد قدوم موسى بن نصير من اقتحام طريقهم الى الغرب .

فقد قرر موسى القضاء على تهديد البربر بصفة نهائية ، وتهيأ له بعد سلسلة من الهجمات الفلابة غربا أن يقضى على كل مقاومة وان يوطد سلطان العرب حتى طنجة . والواقع أن أسلوبه فى تخيير اسراه بين الانخراط فى جيشه بعد

لمسلى الدين الاسلامى وبين بيعهم فى سوق العبيد كان اسلوبا ناجحا . وكان من بين هؤلاء الأسرى البربر طارق بن زياد الذى عينه عاملا على طنجة عندما عاد هو الى عاصمته فى القيروان .

ولم يكن يدور بخلده احد ان طارقا سوف ينتوى شيئا غير دعم الحكم العربى فى الاقاليم التى فتحت حديثا . ولكنه أقدم فى عام ٧١١ على خطوة جسيمة هى عبور المضيق المحدود الذى يفصل افريقية عن أوربا على رأس قوة مختلطة قوامها سبعة آلاف من العرب والبربر وأقامة رأس جسر عند قاعدة الصخرة الكبرى التى أطلق عليها اسم (جبل طارق) .

وواصل طارق زحفه واستولى على ما يعرف باسم الجزيرة . ولكن عند هذا الحد صدر اليه الأمر من موسى الذى ترك معقله فى تونس بانتظاره قبل متابعة الزحف فى شبه جزيرة ايبيريا . وكانت اسبانيا فى ذلك العهد يحكمها ملك من القوط الغربيين هو لذريق الذى لقى مصرعه فى المعركة التى دارت مع العرب واستسلم جنوده . ولم يلبث طارق برغم أمر رئيسه أن انقض على الاندلس واستولى على مالطة وقرطبة وغرناطة .

فى ذلك الحين (يونيو عام ٧١٢) وصل موسى ايضا الى اسبانيا مع جيش من عشرة آلاف رجل . وبعد أن أستولى على مدينة اشبيليه فى فترة قصيرة وكان الزحف العربى السابق قد تجاوزها ، لحق موسى بنائبه قرب طليطلة حيث عاقب طارقا بوضعه فى الاغلال لعصيان أمره ، ثم أخلى سبيله فيما بعد .

وباستئناف الزحف العربى سقطت سلمنكة، وسرقوسة، وفالنسيا ، وطرغونة ، وبرشلونة ، وجيرونا ، وبحلول

خريف عام ٧١٣ كانت اسبانيا كلها فى أيدى العرب باستثناء نافار واستوريا . وعندئذ استدعى موسى بن نصير الى دمشق لتفسير أسباب مغادرة مقره فى القيروان دون اذن . فترك ابنه عبد العزيز للاشراف على اسبانيا.

وعاد ادراجه الى الشام لمواجهة الخليفة الذى كان قد ادركه المرض . ولكنه لم يعد بهيأة النادم ، بل عاد فى موكب المظفر يتبعه على امتداد ساحل افريقية الشمالى رتل من اربعمائة أسير من امراء ونبلاء القوط الغربيين بتيجانهم وأحزمتهم المذهبة . وفى أثرهم ثلاثة آلاف من العذارى الاسبانيات ومواكب لا نهائية من العبيد والاسرى مثقلين بغنائم الحرب .

ووصل موسى الى عاصمة الامبراطورية فى فبراير من عام ٧١٥ قبل أسابيع معدودة من وفاة الخليفة متجاهلا أمر ولى العهد سليمان الذى كان يطمع فى تأخير وصول الموكب المظفر الى ما بعد اعتلائه هو العرش بعد وفاة أبيه حتى يستأثر لنفسه بالمجد لدى ارتقائه . وكان الاستقبال الرسمى فى صحن المسجد الأموى بالغا حد الفخامة والابهة .

أما بالنسبة لموسى بن نصير فان هذا الاستقبال المظفر كان بدء النهاية . لقد غفر له الوليد عصيان امره ، ولكن عندما توفى الخليفة بعد قليل وخلفه سليمان ، جرد موسى من جميع قياداته وصودرت ممتلكاته ، اذ لم يغتفر له سليمان حرمانه من الاستئثار بثمار النصر لدى ارتقائه العرش ، وقد استهدف موسى بعد ذلك لاشد الامتهان والاذلال حتى توفى فقيرا معدما فى قرية نائية بالحجاز .

ولم يكتف سليمان بهذا ، بل امر بقتل عبد العزيز بالسم وهو الذى لم يكن يحكم اسبانيا فقط بامر ابيه موسى بل

أضاف أيضا جزيرة ماجوركا وغيرها من جزر البليار الى الامبراطورية العربية . بل انه استدعى محمدا بن قاسم من الشرق وامر باعدامه . ولم يكن قتيبة بن مسلم باحسن حظا ، فقد اعتقل واعدم بعد محاولة قصيرة لرفع راية التمرد .

وبغض النظر عن هذه الافعال الانتقامية الوحشية ضد ابرز وانجح قادة الوليد ، فقد ســار سليمان فى حياته سيرة سلبية ، مؤثرا حياة الترف والملذات على الفتوح والمعارك ، تاركا شئون الدولة فى ايدي مستشاريه الذين كان منهم محسوبه يزيد بن المهلب . فقد عين يزيد مكان قتيبة واليا على خراســـان ، حيث ندر أن يتفوق على سابقة فى الفتح . لـكنه لم يتفوق عليه الا فى القسوة ، اذا اخفق اخفاقا تاما فى توسيع حدود الامبراطورية . فى الجبهة البيزنطية فقط تمكنت جيوش الخليفة من الزحف وعبور الاناضول لمحاصرة القسطنطينية برا وبحرا . بيد أن هذه المغامرة تعثرت بتفشى الطاعون ، وربما كان هـذا الوباء هو الذى أدى الى مصرع ســليمان ، فقد توفى عام ٧١٧ أثناء زيارة لقواته على الجبهة البيزنطية دون أن يعقب ولدا يرثه ، فخلفه ابن عمه عمر .

كان عمر الثانى على النقيض من سلفه ورعا زاهدا ، ورغبة منه فى استعادة الوحدة فى الامبراطورية فقد حظر لعن على فى المساجد طبقا للتقليد الذى ابتدعه معاوية ، ورد الى نسل على ضياعا كانت مخصصة للاحسان . وقد أدت هذه السياسة الى قيام هدنة فى العراق وفارس . فقد نسى العلويون والهاشميون مؤقتا احقادهم ضد الامويين . بل ان الخوارج المتطرفين كفوا عن العنف طيلة السنوات الثلاث التى دامت فيها خلافة عمر الثانى . وقد تحرى

في اسناد الوظائف العامة أن يختار لها أكفأ المسلمين دون نظر الى عصبية قبلية أو انتساب الى الخليفة . وكان من المحتم أن يكون يزيد بن المهلب من أوائل المتأثرين بهذه السياسة الجديدة . فقد حوسب على أفعال النهب التى كان يتفاخر بها في عهد سليمان ، وانتهى الأمر بنفيه الى جزيرة للمسجونين في البحر الاحمر ، بيد ان يزيدا لم يركن الى هذا المصير ، فبعد وفاة عمر الثانى عام ٧٢٠ فر من سجنه وجمع جيشا من مؤيديه واستولى على البصرة حيث قتل واليها وسطا على خزائنها . ولكن نهايته كانت على يد جيش من ثمانين الف مقاتل بعث بهم الخليفة الجديد (يزيد الثانى من اخوة الوليد) ، هزم ابن المهلب قرب الكوفة وقتله مع ذوى قرابته جميعا .

على ان هذا التمرد لم يكد يتم سحقه حتى شبت الثورات في المناطق الجبلية لبحر قزوين ثم شرقا حتى فرغانة . ومرة أخرى اتحد العلويون والموالى في قضية مشتركة . وعندما توفى يزيد الثانى عام ٧٢٤ ، قام زيد بن على حفيد الحسين الشهيد بأولى سلسلة الثورات التى كان مقدرا أن تبلغ ذروتها في الاطاحة بالأمويين . فأمر هشام الخليفة الجديد وآخر أبناء عبد الملك في وراثة العرش ، بالقضاء على زيد بلا رحمة ، وعين لهذه المهمة قريبا للحجاج يدعى يوسف بن عمر ، وكان واليا على اليمن .

واتخذ يوسف من تفويض الخليفة سلاحا يضرب به في غير ترفق ولا رحمة زيدا واتباعه . ولكن الشبكة كانت تطبق على الأمويين ، والفى هشام محاصرا بالاعداء في كل جهة . ذلك أنه عندما قرر عمر الثانى في عام ٧١٧ سحب الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية ، فطن الروم فجأة الى احتمال بلوغ الامبراطورية العربية طور

التضاؤل والانكماش . وبحلول عهد هشام اخذوا يتدفقون عائدين عبر الاناضول ويهددون معـاقل الامبراطورية الشمالية . وكان نشاط العلويين والخوارج قد جعل العراق وفارس في حالة غليان مستمر . وفي آسيا الوسطى ثارت القبائل المحليـة واستولت على سمرقند من ايدى العرب وهددت بخارى ، التى لم يكن انقاذها الا ثمن الوف من الضحايا العرب . ثم امتدت العدوى الى ارمينيا . وفي افريقية ثار ثلاثمائة الف من البربر ، ودارت معركة دموية قرب القيروان عام ٧٣٥ مثلما امكن سحق الثورة . وبعد ست سنوات أشعلت دعاية الخوارج ثورة أخرى للبربر في مراكش .

لقد بدا حكم هشام لونا من حصار طويل متصل . ولم يتحقق اى انتصار يمكن أن يخفف من جو الـكآبة السائد الا في الجبهة الاسبانية . فان عبـد الرحمن بن عبد الله والى أسبانيا منذ مقتل عبد العزيز الشاب قاد جنوده عبر جبال البرانس واستولى على ناربون حيث اقام مقرا للقيادة العامة بقصد الزحف شمالا الى باريس وشرقا الى ايطاليا . لكن حظه لم يصمد طويلا . ففى عام ٧٣٢ التقى بجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل الملقب بالمطرقة قرب بواتييه . ونظرا لان العرب سبق لهم مطاردة هؤلاء الفرنجة بسهولة من نهر الدوردونى الى نهر اللوار ، فان القائد العربى بالغ في الثقة وغاب عنه أن يدرك أن شارل مارتل عمدالىانسحاباستراتيجى من الارض المكشوفة حيث انعقدت المزية فيها للعرب ، الى مناطق الغابات حيث يغدون فيها قاصرين . ثم أن المعركة دارت في جو قارس البرد لم يكن العرب مهيئاين له ، وقد انتهت المعركة رغم هجمات العرب المتكررة بانكسارهم بعد مقتل عبد الرحمن .

لقد كانت هذه المعركة نقطة تحول فى توغل العرب فى اقاليم الفرنجة . وقد دب الشقاق والتحاسد بين العرب والبربر فى جيش الخليفة . وعلى الرغم من توجيه حملات اخرى فى وادى الرون والاستيلاء على افينيون وفالنس وليون ، بل منها ما هدد باريس ذاتها ـ فان اوربا قد استيقظت الآن تماما الى هذا الخطر . وبحلول عام ٧٥٩ استطاع شارل مارتل بمساعدة تصريحات من لومباردى وفسقونية واقليم الباسك ان يقصى العرب الفاتحين الى خارج فرنسا وأن يوقفهم خلف جبال البرانس .

ان المد الاموى المتمثل فى الفتوح الكبرى قد بدأ الآن ينحسر ، الى ان استهدفت الاسرة الاموية الحاكمة الى السقوط بسيف الانتقام الذى شهرته ثورة العباسيين .

القسم الثاني

عصـــر التفـوق

الفصل الثامن :

الـثـورة العبـاسـيـة

عندما انتزع مروان الثاني وهو من أبناء اخوة عبد الملك الخلافة من أيدي الخلفاء المترفين الضعاف الذين تعاقبوا على الحكم في أواخر عهد الاسرة الاموية ، شبت الثورات في كل جزء من أجزاء الامبراطورية ، بما في ذلك الشام ذاتها . وعلى الرغم من ان مروان كان بطبعه جنـديا محاربا وقد استطاع بعد تعديلات جذرية أجراها في نظام جيوشه اخماد ثورات الخوارج ، والعلويين في غير عناء كبير ، الا انه أخطأ اذ أدار ظهـره للامبراطورية الشرقية وانسحب الى دمشق ، تاركا نصر بن سـيار واليا على خراسان مع قوات أبعد ما تكون عن الكفاية والاقتدار .

ولم يكن مروان على خبرة بالولايات الشرقية المثيرة للقلاقل والاضطرابات ، ومن ثم لم يكن على علم بالنار المضطرمة في فارس والعراق . فهنا كانت تقلبات أشـد خطرا من الثورات المحلية التي سحقها في العامين الاولين من حكمه . فان العلويين الشيعيين لم يتحدوا فقط مع الموالي والطبقات المظلومة في الامبراطورية الشرقية ، بل ان القبائل أخذت تتحد أيضا وتدلي بدلوها مع المتمردين . كما أن الصراعات القديمة بين العرب من أهل الشـمال وأهل الجنوب قد تنوسيت ، وحتى الاعداء القبليون

بالوراثة قد وحدوا قواهم للمشاركة فى الاطاحة بحكامهم الشاميين . وكان أخطر من هذا كله ان حزبا قويا جديداً قد اقام نفسه على راس هذه الثورة البازغة . فقد كان العباسيون ـ الذين سموا بهـــذا الاسم لانتسابهم الى العباس عم النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى اتاح النصر فى موقعة حنين ـ يمتون بقرابة وثيقة لنسل على . ومع انهم كانوا يخالفون العلويين فى نظرتهم الى الخلافة ، الا انهم كانوا يشاطرونهم حقدهم على الأمويين . وهكذا كانوا بغيم لقلهم الى طوائف الثائرين ذوى أثر فعال فى خلق القوة القاهرة الغـلابة التى ستعمل على الاطاحة بالاسرة الأموية .

كانت حركة العباسيين قد بدأت فى عهد خلافة هشام على يد ابراهيم بن محمد احد حضرة العباس الذى كان وقتئذ رئيسا للعشيرة العبــاسية . وكان ابراهيم يدير عملياته من مخبأ ناء قرب البحر الميت ، مستخدما كرسول للعلويين والخــوارج وغيرهم من المتمردين الاقــوياء فى الامبراطورية الشرقية ، عبداً فارسيا سابقا يدعى « ابو مسلم » . وكان أبو مسلم خراسانيا وقع فى أسر الجيوش الأموية وبيع فى أسواق مكة الى ابن ابراهيم ، وكان متآمرا بطبعه ويضمر اشد الكراهية لحكم الشاميين ، كما كان يجيد الدعاية رغم ما ينطوى عليه من الختل والمخادعة ، ولهذا كان أقدر داعية للثورة العبــاسية لدى العلويين والشيعيين والسنيين على السواء . ومما يسر مهمته أن كثيرين من المستوطنين العرب فى الشرق كانوا قد تزوجوا من الأسر الفارسية واتخذوا اللغة الفارسية لسانا لهم . ولكن فوق هذا كله فالى أبى مسلم ودهائه يرجع الفضل فى تناسى القبائل لخلافاتها فى سبيل الهدف الأكبر وهو استئصال شأفة الاسرة الأموية الحاكمة .

وبحلول شهر مايو من عام ٧٤٧ استطاع ابو مسلم ان ينقل الى ابراهيم استعداده لتوجيه الضربة الأولى حالما يعطى مولاه الاشارة . فرد ابراهيم بالايجاب ، وفى الشهر التالى نشر ابو مسلم الاعلام السوداء التى اتخذها شعارا للعباسيين وزحف الى مرو عاصمة خراســان . ومع ان جواسيس مروان تفطنوا الى التراسل السرى مما أدى الى اعتقال ابراهيم ووفاته فى السجن ، فان جيش ابى مسلم من القبائل العربية والفلاحين الفرس تدفق خــلال خراسان وعبر الحــــدود العراقية ، ورفرفت اعلام العباسيين السوداء من اسوار حصون نهاوند ومن قصر الوالى الأموى فى الـكوفة ، حيث بويع فى أكتوبر من عام ٧٤٩ أبو العباس شقيق ابراهيم أول خلفاء العباسيين. وقد تحرك مروان متأخرا ، ولكن كل شيء كان ضده الآن ، فقد رحب العراقيون بالعباسيين كمحررين لهم ، وعنــدما وصل جيش مروان فى يناير من عام ٧٥٠ الى نهر الزاب المتدفق بالفيضان وهو أحد روافد نهـــر الدجلة قرب الموصل ، ما لبث الجيش الشـامى أن تفرق بددا ولاذ بالفرار هلعا من المذابح التى استفاضت بها شهرة أبى مسلم . وكان مصير الذين نجوا منهم من التقتيل والتذبيح الموت غرقا فى النهر الفياض .

لقد أصبح الطريق الآن مفتوحا الى الشام . وسقطت دمشق بعد حصار قصير . وانطلق العباسيون يطاردون مروان الذى هرب الى مصر ، وقد وشى به بعض رجاله انقاذا لحياتهم ، وفيمـــا بعد ارسل راسل آخر حكام الامويين الى ابن العباس مع شعار الخلافة .

وقد شرع نظام الحكم الجديد الآن فى استئصال كافة آثار الحكم البائد . فاخذ يتعقب البقيـــة الباقية من

الاسرة الاموية وبذبحهم ذبحا . وقد دعيت جماعة منهم الى مأدبة أقامها عبد الله بن على عم الخليفة الجديد وقتلوا تقتيلا اثناء المأدبة . واحد فقط من أعضاء الأسرة التى حكمت الشام معظم المائة عام الاخيـــرة استطاع الافلات ، هو عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام ، الذى فر الى اسبانيا وفيهـــا اقام مجدا للامويين نافس فى أبهته وثقافته بلاط هارون الرشيد المشهور . بل ان المونى لن يتركوا فى سلام . فقد نبشت رفات الخلفـــاء الامويين من قبورها وانتهكت حرمتها . وأحرقت عظام سليمان ، ومثلها جثمان هشام بعد جلده ثمانين جلدة . والواقع ان الخليفة الجديد الذى لقب نفسه فى خطبته الاولى بلقب الســــــفاح وعمه عبد الله ، بدا وكأنهما يتنافسان فى القسوة والانتقام . ولاول مرة فى تاريخ العرب ، اشتمل اثاث قاعة الاستقبال فى قصر الخليفة حصيرا من الجلد استخدم كبســـــاط للسياف ، الذى أصبح يقف دائمـــا على أهبة الاستعداد بجانب عرش مولاه .

وعلى الرغم من روح الحماسة التى حارب بهـــــا جيش أبى مسلم والاستجابة الفورية من جانب الجماهير الفارسية والعراقية للثورة العباسية ، فان مثل هـــذا الانجاز ما كان يمكن أن يتحقق لولا ان الامويين قد دمروا أنفسهم الى حد كبير قبل رفع الرايات السوداء . فان الفساد كان قد حل منذ عهد سليمان البدين المتبذل . وغدت المادية والجشع تنخران فى كيان الخــــــلافة وتستنزفان قواها . وبتدفق الغنائم والكنوز من كافة الارجاء تخلى الامويون عن أساليب الحيـــاة الصحراوية الخشنة التى كان يحياها أباؤهم ونسوا التعاليم الروحية للاسلام ، وانغمسوا انغماسا كليــــا فى شرب الخمر ،

والمسر ، وسباق الخيل ، والقنص بالكلاب السلوقية والفهود . بل ان الزنا الذى كانت عقوبته الموت اصبح شائعا فى الشام . وغدت المواخير تجارة رائجة بما يجلب اليها من الجوارى من سبايا الحرب ، من يونانيات وفارسيات وتركيات وافريقيات واسبانيات . بل قيل فى هذا ان الوليد الثانى كان يستحم بانتظام فى بركة من الخمر .

بيد ان الترف والانحلال لم يكونا وحدهما السبب فى توهين عزيمة الامويين واضعاف ارادة المقاومة عندهم وتيسير الأمور أمام العباسيين . فقد كانت سياسة اكثر خلفائهم هى محاولة الحكم بأسلوب (فرق تسد) او الايقاع بين العرب من اهل الشمال وأهل الجنوب . وبالطبع فقد سارع العباسيون يبينون للقبائل كيف كان يجرى استخدامهم لاستدامة سيطرة الشاميين عليهم .

والى جانب هذا كان الامويون قصار النظر الى حد بعيد فى تمسكهم بنظام طبقى كان فيه العرب هم الطبقة الارستقراطية الحاكمة ، والموالى فى وضع المواطنين من الدرجة الثانية . وقد ادى هذا الى اثارة الحفيظة والمرارة فى نفوس الموالى من أبناء العراق وفارس وجعلهم اداة طيعة لأية حركة ثورية ، ولا سيما انهم كانوا أكثر ثقافة بحكم اتصـــالهم السابق بالحضـــارتين البيزنطية والفارسية .

***

ان الثورات كثيرا ما يكون لها اسلوب فى التهـــام القائمين بها ، كما قدر لأبى مسلم وللخوارج والعلويين المنكودى الحظ ان يعرفوا عما قريب . وكان أول من استهدف لهذه المعاناة هم الخـوارج ، الذين ادى بهم اعتقادهم بأن الخلافة يجب ان تشمل على مجلس منتخب

لا على حاكم معين مستبد ـ ادى بهم الى الثورة على النظام الجديد كما ثاروا من قبل على النظام القديم .
فما كان من أبى مسلم الذى عين واليا على خراسان الا ان قاد جيشه ضدهم ، وقيل انه ذبح خمسين الفا منهم قبل تهدئة الاوضاع فى الولاية . لكن مثل هذه القصص البشعة عن مسلك ابى مسلم بدأت تنتشر وتتجاوب أصداؤها الى حد رأى معه حتى أبو العباس الملقب بالسفاح أن يبعث بأخيه ابى جعفر للتحقيق والاستقصاء. وقد أكد التحقيق كثيرا من أعمال القسوة المعزوة الى أبى مسلم ، كما كشف عن وجود أطماع خطرة له بيتت لتنفيذها . وقد أوصى أبو جعفر الذى أزعجته نتائج التحقيق أخاه أبا العباس بعزل أبى مسلم ، بل بالقضاء عليه اذا تيسر . بيد ان الخليفة برغم ميله الى الاخذ بهذه المشورة خاف خوفا شديدا من ردود الفعل فى خراسان ، ولم يعمل بها .

وعند هذا الحد انتكس حظ ابى مسلم ، ففى غضون أشهر قلائل توفى أبو العباس بمرض الجدرى ، ونودى بأبى جعفر خليفة ملقبا بالمنصور . وقد حاول أبو مسلم جهده استرداد اعتباره لدى مولاه الجديد ، وعندما سعى عبد الله عم أبى جعفر الى منازعته فى العرش ، اندفع أبو مسلم من خراسان للدفاع عن الخليفة الشرعى . وكان محتما أن ينتصر أبو مسلم ، ولكنه أخفق فى أن يحرز الانتصار لنفسه . ففى طريق عودته الى خراسان دعى لزيارة بلاط أبى جعفر ، وهى دعوة اطاعها بلهف ، ظنا بأنها تنطوى على مكافأته عما فعل . ولكنه كان مخدوعا الى حد بعيد ، فانه ما كان يصل حتى بادر أبو جعفر باتهامه بجرائمه وتطلعاته ، وهى اتهامات عقوبتها الموت . ولدى اشارة معينة من الخليفة

انقض الحرس على أبى مسلم ومزقوه اربا والقوا بجثته المختلطة فى نهر الدجلة .

وكان الدور التالى على العلويين الذين اقنعهم أبو مسلم بدعايته الموهمة بان العباسيين انما يخوضون معركتهم هم أنفسهم . وبعد انقضاء عشر سنوات دون ما اعتراف من النظام الجديد بمطالب العلويين ، قامت ثورة فى العراق والحجاز احتجاجا على ما عدة العلويون الآن اغتصابا من جانب العباسيين . وقد رد أبو جعفر بلا رحمة ، فاخمد الثورة ، وأعدم زعماء العلويين .

وكان يمكن الظن بانه القضاء على الأمويين والخوارج ، ثم ما تلا ذلك من التخلص من أبى مسلم والعلويين ، فقد ساغ لأبى جعفر أن يطمئن وان يقضى بقية حكمه الذى دام واحدا وعشرين سنة دون خوف من منافس . ولكن يبدو أنه ما برح غير واثق من العرب أبناء جلدته ومن خدمتهم بالإخلاص لنظام حكمه . فانه منذ ذلك الحين حرص هو ومن وليه مباشرة من الخلفاء على الاستعاضة عن العرب بالفرس فى أرجاء الخلافة . وقد نقل مقر الخلافة من الشام الى العراق . وادخل الثقافة الفارسية ونظم التعليم والعادات الاجتماعية ، وكف عن اختيار حرس الخليفة وضباط الجيش من المصادر العربية ، وجعل اختيارهم من خراسان ثم فيما بعد من قبائل التركمان فى الشرق . وكان لهذه التغييرات الثورية أثر بغيض فى قطاعات معينة من السكان العرب ، الذين أصبحوا يشعرون انهم غدوا فى الواقع ، وأن لم يكن شرعا ، مواطنين من الدرجة الثانية فى أمبراطوريتهم ذاتها .

بيد أن هذا كان بالنسبة للموالى فى فارس والعراق

فجر عصر جديد ومجيـــــد . فان المدافعين منهم اى العباسيين قد فـازوا بنصر باهر ومكان تحت الشمس للمظلومين من أبنا النصف الشرقي للامبراطورية ، وما هو الا ان انتهى حمام الدم الذى كان فى البداية حتى شرع نظام الحكم الجديد فى تطعيم ملكه بالابهة الفارسية .

وكان أول أعماله فى هذا الصدد هو اتخاذ عاصمة جديدة له . ففى عام ٧٦٢ اختار ابو جعفر موقعا على نهر الدجلة اسمه بغداد غير بعيد عن العاصمة الفارسية القديمة طيـسفون ، التى اتخذ من أطلالها محجرا لتزويد العاصمة بمواد البناء . ونزعت أبواب دمشق والكوفة وواسط المعقل الحـربى للحجاج وأرسلت لتركيبها فى المدينة الجديدة ونقل من طيسفون كل شيء سوى القوس الضخم لقصر الامبراطور الفارسى الذى تحدى كافة الجهود لنزعه من مكانه .

والواقع ان التأثير الفارسى قد شمل بالتدريج كل انماط الحياة العربية ، فأصبحت الالقـــاب فارسية ، والزوجات فارسيـات ، والاغانى فارسـية ، والافـكار والمعتقدات فارسية .

وقد تجلت هذه المنازع الفارسية على اشدها فيما قام به العباسيون من تغييرات دستورية . فقد أدخلوا المنصب الفارسى للوزير ذى الصلاحيات الكبيرة ، وبهذا التعديل للسلطة الزمنية الذى طرأ على نظام الخـلافة ، أصبح الخليفـــة أقرب الى أن يكون الرئيس الروحى للدين الاســلامى ، بينما تدار شـئون الدولة بيد رئيس الحـكومة .

وكان أول من شغل منصب الوزير هو خالد بن برمك ، الذى كان ابوه كبيرا للكهنة البوذيين فى بلخ فى خراسان

الشرقية ، وقد ورثه ابو جعفر من أخيه أبى العباس الذى توثقت بينهما العلاقات الشخصية الى حد ان زوجتيهما كانتا تتبادلان ارضاع اطفالهما . وكما كان الحال مع أبى العباس فكذلك اصبح البرمكى المسلم صديقا حميما لأبى جعفر ومستشارا خاصا . والواقع أن نفوذ خالد بن برمك هو الذى حفز على دراسة وتنمية الفنون والعلوم اليونانية والفارسية التى جعلت من العاصمة الجديدة واحدة من أكبر المراكز الثقافية فى العصور الوسطى .

ولم يكن أبو جعفر بطبيعته مثقفا ولا منحازا الى اللهو ، ولكنه كان أقرب الى الزهد والتقشف ، وكانت له مواهب رجل الدولة والسياسى المقتدر ، وقد هيأت له هـذه الصفات أن يمنح الخلافة أكثر من ثلاثين عاما من السلم . واستطاع بمقدرته أن يكبح كل تهديد لسلامة الدولة ، بل ان يوسع حدود الامبراطورية فى الشرق باضـــــافة طبرستان الولاية الجبـــــلية جنوبى بحر قزوين وكذلك قندهار على الحدود الهندية الى رقعة الدولة . وقـــد تهيأ للخلفاء العباسيين بفضل يقظته ونشاطه أن يبلغوا بالخلافة منذ عهده الى عهد ارتقاء حفيده هارون الرشيد ذرى من المجد والابهة لم ينل منهـا سرطان الحـروب الأهلية . ان اسم هارون قد يتصدر المع فصل فى تاريخ العباسيين ، بيد ان أبا جعفر هو مؤلف المقدمة .

وكان الشغل الشاغل لجعفر الى جانب شئون الدولة هو تأسيس اسرة حاكمة من نسله ، على غرار ما فعل معاوية من قبل . وفى هذا الســـــبيل لم يتورع عن استخدام أفتك الأسلحة لضمان الخلافة لولده محمد . فان أبا العباس كان قد أوصى بالخلافة بعد وفاة أبى جعفر لابن أخ له هو عيسى بن موسى . وقد حاول ابو جعفر أول

الامر التخلص من عيسى بالسم ، وعنـــــدما فشل جاء بشهود اقسموا انه لم يكن ثمة عهد بين ابى العباس وابن أخيه ، ولكن عيسى استنجد بشهود اكثر شهدوا الى جانبه . فأمر الخليفة باحضار ابن عيسى أمامه ، وعلى مرأى من الاب قيـــد الابن ، وارغمه على الركوع فوق بساط الاعدام ، وعندئذ طلب ابو جعفر من المتطلع الى العرش والسياف قائم فوق رأس الضحية أن يغتنم هذه الفرصة الأخيرة فيسحب مطلبه وينقذ ولده . وقد كان لهذا التهديد الوحشى اثره المنشود ، وانسحب عيسى وولده الى ضيعة قرب الكوفة مع منحة مالية جزيلة . وعندما توفى ابو جعفر عام ٧٧٥ وهو في طريقه الى مكة للحج ، ولى محمد الخلافة . وهكذا حقق ابو جعفر مطمحه الاكبر ، واسس الاسرة الحاكمة التى تعاقب فيها خمسة وثلاثون من الخلفـــاء العباسيين زهاء خمسمائة عام ، الى أن زحفت جحافل هولاكو المغول ودمرت بغداد تدميرا .

الفصل التاسع :

البعث الأمــوى فى أســـبانيا

بينما كان أبو جعفر يعمل على دعم الخلافة العباسية فى الشرق بمثل هذا التدقيق ، كان يجرى فى اسبانيا تحول بالغ تحت قيادة عبد الرحمن أول أمير لقرطبة. ففى السـنوات الاخيرة لحكم الأمويين كانت الجيوش الاسلامية فى الغرب قد منيت بانتكاسات خطيرة جعلت سيطرتهم فى اسبانيا تقتصر على الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة . وكانت الخلافات الداخلية تمزقهم شر ممزق ، وامتدت الاحقاد القديمة بين عرب الشـــمال وعرب الجنوب الى اسبانيا ، وكانت قبائل البربر دائمة الانتقاض والتمرد على حكم العرب بسبب هضم حقوقهم ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية . ولم ينقـــذ المستوطنين العرب من الفناء سوى مجىء جيش من سبعة وعشرين الف مقاتل ارسل من الشـــام لسحق ثورة البربر . وقد استوطن القادمون بدورهم البلاد فيما بين اشبيلية وجاين والجزائر والقيرا . ولكن نذر الثورة تعالت من جديد بعد أن رفرفت رايات العباسيين السوداء على انقاض الخلافة الأموية . وبينما كان يوسف الفهرى أحد الحكام من سلالة عقبة بن

نافع منهمكا فى اخمـاد واحدة من حركات التمرد ، اذ جاءت الانباء بأن اميرا شابا من الامويين هو عبد الرحمن بن معاوية قد هبط الى الارض الاسبانية قرب غرناطة بقصد الاستيلاء على الامارة .

كان عبد الرحمن فى العشرين من عمره عندما قضى العباسيون على اسرته ، ولكنه استطاع الافلات بمعجزة حتى وصل بعد رحلة طويلة شاقة ذاق فيها الاهوال الى سبته فى عام ٧٥٥ والتجأ الى بعض البربر من اقارب أمه .

وقد شرع على الاثر فى العمل لكسب اسـبانيا الى صف الامويين . ومن حسن حظه أن العرب فى اسبانيا تناسوا خلافاتهم واتحدت رغبتهم فى التخلص من يوسف، وأبدوا تمام استعدادهم فى الانضواء تحت لوائه لتحقيق هذه الغاية . ولما ادرك يوسف مدى قوة هذا المنافس الخطر حاول اكتسابه الى جانبه بالرشى والوعود ، بما فى ذلك تزويجه من ابنته ، ولكن عبد الرحمن تجاهل هـذه العروض وزحف مظفرا مرحبا به الى اشبيلية وارشيدونا وسيدونا . وعندئذ لم يكن أمام يوسف سوى القتال أو الهرب . فقرر أن يقاتل ، وزحف من عاصمته قرطبة حتى التقى بجيش عبد الرحمن على ضفاف نهر الوادى الكبير فى صباح الرابع عشر من شهر مايو عام ٧٥٦ . وكان النصر حليف عبد الرحمن الذى دخل قرطبة مظفرا بعد فرار يوسف .

وهنـــا اثبت الامير الشاب انه رجل دولة وذو روح انسانية كما هو جندى باعلان العفو العام وتحريم السلب

والنهب . بيد ان سيادته على قرطبة لم تجعل منه حاكما عبر منازع لكل اسبانيا الاسلامية . فمن ناحية ظل يوسف شبه القلاقل مدينة طليطلة مدى ثمانية أعوام ، الى ان قتل في النهاية وتم الاستيلاء على طليطلة عام ٧٦٤ . ومن ناحية أخرى فان البربر الذين وقفوا أول الأمر موقفا سلبيا ما لبثوا أن عاودوا تذمرهم من مقام توزيع الاراضى الذى راوه مجحفا بهم ، واخذوا يقاومون الحكم العربي عشر سنوات أخرى . ثم كانت هناك محاولة الخليفة العباسى أبى جعفر للاستيلاء على اسبانيا لصالح العباسيين ، والتى انتهى عام ٧٦٣ بقطع رأس مبعوثه المنكود وارساله الى بغداد محفوظا في الملح والكافور وملفوفة بالراية السوداء . وفي ختام هذا كله ، في عام ٧٧٧ سعى شارلمان امبراطور الفرنجة الى التحالف مع صهر يوسف وبعض زعماء القبائل العرب المنشقين في منطقة برشلونة وزحف لمهاجمة عبد الرحمن في قرطبة . لكن شارلمان لم يستطع التقدم الى ابعد من سرقوسة ، التى اغلقت أبوابها في وجهه وبدأت تقاومه ، والفى نفسه هدف الهجوم من كل جانب . فقد زحف عليه عبد الرحمن من الجنوب ، وتعرض جناحاه لمضايقات شديدة قام بها جيش من ثوار الباسك الذين عانت اسرهم من حكم الفرنجة والقوط . وهكذا انسحبت قوات الفرنجة شمالا عبر جبال البرانس تاركة آلاف القتلى في مفاوزها وكهوفها الغادرة ، بما فيهم زعيمهم المشهور رولان الذى خلد الادب الفرنسى موته البطولى في « أغنية رولان » .

وبهذا الانتصار اصبح الأمير الاموى أخيرا قادرا على توجيه نشاطه من القتال الى اصلاح الحكم في اسبانيا

الاسلامية ، والى توحيد طوائف العرب والبربر المتحاربين دون خوف من الهجوم عليه سواء من داخل الامارة او خارجها ، فقد تحدى أقوى الحكام فى الشرق والغرب واثبت انه ندا لهم ، وعمل على توطيد السلم والنظام والاستقلال فى اسبانيا . وتهيأ له بما أغدق على البربر فى شمال افريقية واسبانيا أن يجعل من هؤلاء الذين جبلوا على التمرد واثارة القلاقل جيشا منظما جيد التدريب قوامه أربعون الف مقاتل .

بيد انه برغم هذه الانجازات كلها لم يعمد قط الى اتخاذ لقب الخليفة . بدلا من ذلك كان معروفا فى كافة ارجاء ملكه باسم أمير اسبانيا . وبالمثل ظل خلفاؤه على مدار زهاء قرن ونصف بعد وفاته يتخذون هذا اللقب . ومهما يكن فان مكان عبد الرحمن فى التاريخ لا يعود الى لقبه . وانما الى التراث الجمالى والابداعى الذى خلفه فى اسبانيا . فان هذا التراث لم يضـــــارع فقط الابهة الفارسية التى اتسمت بها الخلافة العباسية ، ولـكنه ظل أيضا أثرا باقيا شاهدا على الفن والعمارة العربية على مدار مئات الأعوام بعد ما دمرت أمجاد بغداد وعدت عليها عوادى النسيان ، وعبر العديد من القرون قبلمـــا بدات أوربا تقيم لنفسها تراثا ثقافيا خاصا بها .

لقد شرع عبد الرحمن بعد استتباب السلم والأمن من الغزو فى اسبانيا فى تنمية مواردها بنشاط وعزم . فبنيت القنوات المائية لتزويد مدن الامارة بالمياه النقية ، ونهضت مشروعات الرى ، وأدخلت نباتات وفـــواكه كالخوخ والرمان . وفى عام ٧٨٦ ، اى قبل وفاته بعامين ،

شيد مسجد قرطبة الكبير . منذ القرن السادس عشر قد ضم هذا المســـــجد بين جنباته كاتدرائية رومانية كاثوليكية ، ولكن على الرغم من هذا ومن ازالة كل اثر لممارسة شعائر الدين الاسلامي في اسبانيا مدى قرابة اربعمائة عام ، فما يزال هذا المسجد الكبير يشار اليه على لافتات المدينة وفى الدليل الرسمي بانه « المسجد » .

بل ان عبد الرحمن عمد الى أكثر من تجميل المــدن وبناء المساجد . كان يمتاز بعدل موفور وروح ديمقراطية، ومن ثم قصد الى منح شعب الامارة قانونا للعدالة . فقبل الفتح الاســـــلامي كان النبلاء القوط ورجال الدين يتمتعون بكل السلطة وبكافة الامتيازات ، وكان الفلاحون يعيشون طبقا لاهواء حكامهم . فالغى عبد الرحمن هــذه المظالم ومنح الفلاحين الاسبان قانونا للحقوق والحمــاية القانونية لم يحظوا قط بمثله من قبل ، فلا غرو اذا كان بعض المؤرخين الغربيين مثل رينهارت دوزى قد أقر بان « الفتح العربي لاسبانيا كان نعمة لها » .

ومن سوء حظ اسبانيا والعرب ان عبد الرحمن لم يفسح له في الأجل بعد الثامنة والخمسين لكي يواصل أعماله الاصلاحية . وكان أولئك الذين أعقبوه في الحكم خلال السنوات المئة التالية فريقا هزيلا بالمقارنة اليه ، انصرافا عن شئون الحكم والاصلاح الى الصيد والمباذل ، وبينما اثمرت جهود عبد الرحمن ثمارها واخذ اقتصاد اسبانيا يزدهر ويزداد ، فان خلفاءه انحازوا الى اجتناء الثراء والخمول ، وأدخلت الانماط والعادات الفارسية من بلاط هارون الرشيد ، واستبد بالحكام ذلك الافتتان

المستطير بالترف الذى ساعد على تقويض الأسرة الحاكمة الام فى الشام . وما لبث البربر ان عادوا الى سالف ديدنهم من الانتقاض محاولين الاستيلاء على الامارة . وبانتشار روح التمرد والثورة بدات الولايات تنسلخ من حكم قرطبة وتعلن استقلالها .

لقد تسنم العرب فى عهد عبد الرحمن ذرى القـــوة والشهرة . وفى عهد أبنائه أخذوا الآن ينحدرون سراعا الى الهاوية .

الفصل العاشر :

ألف ليلة وليلة

فى غضون أقل من عشر سنوات بعد وفاة أبي جعفر ، طفرت الخلافة العباسية من ربيع مزهر الى صيف متألق . لقد أصبح هارون الرشيد ، حفيد أبي جعفر ، هو الخليفة ، وبدأ عصر ألف ليلة وليلة . واذا كانت الخطى أسرع من المعدل الطبيعي ، وكانت حرارة الصيف تنذر في تضاعيفها بأعاصير قادمة ، فان أحدا لم يفطن اليها أو لم يحفل بها . ان دروس الامبراطورية الرومانية قد تنوسيت أو لم يتعلم منها أحد . وانغمست بغداد فى الابهة والترف ، غير مبالية بالغد .

لقد جمعت الثروات ، وكان المال ينفق على نطاق يفوق ما ينفقه آل روتشيلد وروكفلر في العصر الحديث . ومنح هارون أخاه ابراهيم وكان مغنيا محترفا أكثر من مليوني دولار ، بالعملة الحاضرة ، سخاء وكرما . وكدست أسرة البرامكة — الوزراء بالوراثة لدى أبي جعفر وهارون — ثروة خيالية قيل انها جاوزت ثلاثين مليون دولار . وذكر ان أم هارون نالت أكثر من أحد عشر مليون دولار كانت تنفقها على زينتها وقصورها . واكتسبت زبيدة الحسناء زوجة الخليفة شهرة أسطورية فى الآفاق مثل الخليفة ذاته . وفى قصور الخلافة التى كانت تحتل ثلث المدينة

كانت تصر على الا يشرب ضيوفها الا فى كئوس من ذهب او فضة مرصعة بالجواهر . وحتى أحذيتها كانت تزدان بالاحجار الكريمة ، وقد ذاع انها فى رحلة حج الى مكة انفقت ما يربو على مليونين ونصف مليون دولار .

وكما كان الحال فى أواخر عهد الخلفاء الامويين ، كانت نساء الطبقة الراقية يتمتعن بقدر كبير من الانطـــلاق والتحرر ، وينافسن الرجال فى التدخل فى شئون الدولة . ويتحفن المجتمع بأحاديثهن الطلية ومواهبهن الموسيقية . وقد شـــاع التبذل لكثرة عدد الجـــوارى والاماء وساد الترف بيوت الاغنياء الى حد لم يعرف له مثيل فى العصور الحـــديثة حتى فى قصـــور ملوك البترول الاقطاعيين . وكانت البيوت تبرد بالثلج ، وأدوات المائدة لا تقل بحـــال عن الفضـــة ، وقطع الاثاث تطعم جميعهـــا بالابنوس واللؤلؤ . وكان للأمين ابن هارون ثلاثة قوارب كبرى على أشكال الاسد والدلفين والنسر ، تكلف كل منها أكثر من مائتى وثمانين الف دولار ، صنعت لرحلاته النهرية . وكانت الخمر تشرب علنا ، بينما كانت الاغانى وقصائد الشعر فى مدح الخمر تتردد فى حجرات تعبق بالعنبر المحترق .

بل ربما كانت فارس والعـــراق أشهر منهما اليوم بثروتهمـــــــا فى الاثاث والمنسوجات . كانت الاقمشة الحريرية المزدانة بخيوط الذهب تصنع فى اقليم «فارس» من أجل سيدات البلاط . وكان قمـــــاش « التافتاه » الحريرى الذى ينسج فى فارس كثير الانتشار ويصدر بمقادير كبيرة الى أوربا . ومن بخارى الى دمشق كان يصنع كل شكل من الاثاث والادوات المنزلية . من الارائك الى المقصات ، ومن الدمقس الى الاقداح المعدنية . وكانت

صناعة الزجاج في الشام والورق في سمرقند اول ما صدر من هذه السلع الى العالم الخارجي . وكان الزجاج الملون الذي جاء به الصليبيون لاول مرة الى اوربا تقليداً للانواع المطلية بالميناء المصنوعة في الشام . اما عن الثروة المعدنية فان ثروات الخلافة فيها كانت تجاوز الحصر . كانت كل جوهرة تتحلى بهـا سيدات المجتمع العباسيات مما يسهل وجوده في نطاقهـا ـ الذهب والفضة من خراسان ، واللؤلؤ من البحرين ، والياقوت واللازورد من بلاد ما وراء النهر ، والفيروز من نيسابور ، والانتيمون من أصفهان . وكانت الشام تنتج الرخام والكبريت ، وفرغانة تزود بالزفت والغاز والزئبق .

وكان الشطرنج ، المستورد من الهند ، والنرد ، هي الالعاب المفضلة لدى الاغنياء . وكان البولو ، المجلوب من فارس ، والرماية بالسهام ، وسباق الخيل ، والصيد ، هي الرياضات الرئيسية خارج الدور . وكانت المراهنة على السباق تجري حامية ، وتدور بمبالغ كبيرة . اما عن القنص ، فقد ادخل في تدريب الصقور من فارس ـ وهي عادة ما زالت باقيـة الى اليوم في الاردن والسعودية والخليج العربي .

ومن وراء كل هذا الترف والثراء قامت تجارة رائجة وصناعة مزدهرة . فقد كانت مئات السفن النهرية من كل انحاء الامبراطورية الشرقية ترسو على امتداد ارصفة بغـداد والبصرة ، من الصين حتى افريقية ، محملة بالحرير والعطور والصيني والاصباغ والتوابل والياقوت واللازورد والفراء والعـاج والعبيد للبيع في أسواق العاصمة ، حيث كانت الحوانيت تجمع بعضها مع بعض حسب نوع التجارة او الحرفة ـ فالصاغة في شارع ،

والخياطون فى آخر ـ كما هو الحال اليوم . وكان التجار العرب ، ومنهم السندباد البحرى الأسطورى ، يحملون الى الشرق الأقصى والى أوربا وشـــمالا حتى روسيا ، الأرز والحبوب والكتان والحرير والعطور واللؤلؤ والزجاج والمعادن والسكر والفواكه والخضر ، وهى منتجات مصر والشام والعــــراق والخليج العربى والوديان الفنية الخضراء فيما بين بخارى وسمرقند . وغالبا ما كان هؤلاء التجار يحملون ايضا رسالة الاسلام ، التى تأهلت فى جنوب شرق آسيا ، وعلى الأخص فى الجزر التى تتكون منها اليوم دولة اندونيسيا .

وكان فى الامبراطورية العباسية أيضا مستوى رفيـع للخدمة الاجتماعية والصحة العامة ، فقد كانت العاصمة وحدها تفخر بأن بها سبعة وعشرين الف حمام عمومى . وقد تقدم الطب والصيدلة تقدما سريعا . وأقيم نظـام للامتحانات لمن يمارسون الطب والصيدلة لمنع استغلال الدجالين للجمهور . ويقال أن فى العاصمة وحدها اجتاز هذه الامتحانات أكثر من ثمانمائة طبيب . وقد ادخل نظام تشريح الحيوانات للأبحاث الطبية فى وقت مبكر فى القرن التاسع ، وظهر لاول مرة كتاب تعليمى عن طب العيون . وقد أنشىء أول مستشفى فى العاصمة على يد هارون ، واعقبه انشاء اكثر من ثلاثين مستشفى فى شتى أرجاء الخلافة ، وقد زود كل منها بمستوصف ، وفى بعض الحالات بمكتبات طبية وتسهيلات تعليمية لكلية الطب .

وكان رجال الطب المسئولون بصفة أساسية عن هذا التقدم فى الطب والكيمياء هم جابر بن حيسان وأبو بكر الرازى ، وقد اطلق على جابر الـذى جاء من الكوفة بالعراق لقب « أبو الكيمياء العربية » . وبسبب نزعاته

الحماسية في التجارب ، فقد عمل على تطوير النظريات الكيماوية اليونانية والمصرية ، وعلى الاخص نظريات أرسطو - في مجال العناصر وتحويل المعادن الخسيسة . وبفضل ابحاثه حدث تقدم كبير في عمليات التكلس والتبخر والذوبان والتبلور . وقد ترجمت مؤلفاته ، التي لا يزال باقيا منها حتى اليوم أكثر من عشرين مؤلفا،الى اللاتينية وظلت عدة مئات من السنين بعد وفاته ذات تأثير بالغ في معامل أوربا وآسيا . وكان أبو بكر الرازى وهو فارسى من الرى قرب طهران أكثر تأثيرا ، وقد وصف بأنه « أكثر أصالة من كافة الاطباء المسلمين وأوفر خصبا كمؤلف » . ومن بين مؤلفاته التي جاوزت المائة عدد من الكتب في الكيمياء ترجمت الى اللاتينية واحتلت مكانة مرموقة كمصدر للمعرفة الكيميائية في أوروبا على مدار الخمسمائة عام التالية . وبالمثل كانت تقاريره عن الجدرى والحصبة تحتل الاولوية في مجالها ، وقد ترجمت الى اللاتينية فكانت أعلاما للأطباء الاوربيين . وكانت أهم أعماله على الاطلاق موسوعته الطبية الشاملة التي استخلصها مما تلقاه العالم العربي عن مصادر يونانية وفارسية وهندية ومن ابحاثه الخاصة ، فاصبحت واحدة من ابرز الملخصات في علوم الطب ، وقدر لها ان توجه وتؤثر في الفكر والبحث الطبي في الغرب مدى قرون تالية .

وقد بدأت الزراعة تزدهر بعد طول اعراض ، فأنتجت الارض محاصيل وافرة من الشعير والقمح والارز والتمر . وكانت مصر والشام وخراسان والوديان الخضراء حول بخارى وسمرقند تنافس العراق في الخصب والانتاج . وكثير من منتجاتها جاء به الفاتحون العرب الاوائل للهند وآسيا الغربية ، وغدت الامبراطورية تنتج

كل فاكهة وخضر مما نأكله اليوم ، من البرتقال الى قصب السكر ، ومن الزيتون الى البطيخ .

وكان الخليفة هارون الرشيد هو الذى يتربع فوق ذروة هذا الثراء الاكبر والرفاهية البالغة ، والذى كان يحتل فى النفوذ والمكانة منزلة تفوق كل سائر الحكام شرقا وغربا ، باستثناء شارلمان . بل ان شارلمان كان مدركا بما فيه الكفاية لقوة الخليفة الى حد تبادل السفراء معه والتلميح الى عقد تحالف يمكن ان يخدم مصلحتهما المشتركة بتهديد البيزنطيين والأمويين فى اسبانيا ، وهما منافسان على التعاقب له وللعباسيين . ولقد علا شأن هارون لأول مرة وهو فى العشرين من عمره خلال حكم والده محمد ، حينما قام العباسيون بأول هجوم لهم على جيرانهم الروم على أمل استغلال حالة التسلم والانسجام السائدة فى الامبراطورية للتخلص من التهديد البيزنطى فى آسيا الصغرى وقد تولى هارون مصحوبا بخالد بن برمك الوفى قيادة طليعة جيش الخليفة ، الذى توغل حتى البسفور . وهناك اجبر الملكة ايرين الوصية على العرش على توقيع معاهدة ودفع الجـــزية لجيوش الخليفة . وكانت هذه رابع وآخر مرة وقف فيها جيش عربى أمام أسوار القسطنطينية .

واذ عاد هارون بغنائم هائلة واســـتقبل استقبال الأبطال ، كافاه والده المشغوف به بلقب « الرشيد » . ويبدو ان الافراط فى التدليل بعد هذا النجاح قد لعب برأس هارون ، فانه طلب الى اخيه الاكبر موسى ان يتخلى عن حقه فى ولايته الخلافة . فأبى موسى ، وعندما توفى محمد عقب ذلك مباشرة وافق هارون على عدم الالحـاح فى مطلبه . ولكن أمهما ، وهى جارية فارسية ســـابقة

كان محمد قد اعتقها وتزوجها لكي يسبغ الشرعية على ولديه ، كانت أكثر طموحا لولدها المفضل هارون مما كان هو لنفسه . وعندما استجاب موسى لانكار الذات من جانب أخيه بتعيين ولده خلفا له ، وضعت الأم حدا للخلاف بتسميم موسى ، ولم يجد هارون الذي لم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره صعوبة تذكر في اقناع ابن موسى بالتنازل عن الخلافة ، وفي عام ٧٨٦ بدأ حكم أشهر خليفة في الاسلام .

وكلما أمعن المرء في دراسة حياة وخلق هارون الرشيد ، كلما بدا أنه استأثر من المؤرخين المحدثين بتأثير مغنطيسي . وليس من شك في أنه كان حاكما قديرا ، وان كان قاسيا وغيورا . بيد أنه لم يكن بأي حال فذا . فبفضل تفاني أبي جعفر وجهوده الدائبة ، ورث هارون امبراطورية يسودها السلم ، ولها مقومات ثقافية وأدبية أصبحت الآن مناط الحسد من الشرق والغرب ، وقد تقلد مكان القمة في هذا الميراث بما يقتضيه من أبهة وزهو .

لكن من العسير أن يجد المرء أي شيء فعله لاثراء امبراطوريته أو توطيد مقوماتها . فان ممتلكات الخلافة عند وفاته كانت أقل منها عند ولايته . وقد كان لحملاته التالية ضد البيزنطيين تأثير عكسي ، وتحطم السلم والانسجام اللذان ورثهما بسلسلة من الثورات الدموية خلال الشطر الأخير من حكمه . وكانت علاقاته الشخصية تغشاها في أحيان كثيرة الغيرة والشكوك التافهة حيال أوثق أصدقائه ، وحتى أسرته .

أما معاملته لأسرة البرامكة الذين كانوا مثال الخدام الأوفياء الأمناء لثلاثة أجيال من الخلفاء ، فلا يمكن وصفها إلا بأنها كانت لونا من جنون العظمة . كان وزيره هو

يحيى ، ابن خالد البرمكي وزير أبي جعفر المخلص ، ذلك ان هارون حذا حذو جده في الاعتماد على الفرس بصفة عامه وعلى اسره البرامكه بصفه خاصه في تصريف شئون حكومته . ولم يسبق ان تهيأ لاحد من الخلفاء نصير أوفى من ابن خالد الذى قاوم بعناد وصلابة خطة موسى في تعيين ابنه في مكان هارون حتى لقد زج به في السجن جزاء هذا التحدى . كما ان دين الخليفة للبرامكة لم ينته عند هذا الحد ، فان واحدا من ابناء يحيى ، وهو الفضل ، كان معوانا في قمع محاولة للعلويين للاستيلاءعلىطبرستان وانتزاعها من الامبراطورية . وهناك ابن آخر ليحيى ، وهو جعفر ، وكان شابا موفور الوسامة قد أصبح صديقا حميما لهارون حتى كان الخليفة وجعفر لا يكادان يفترقان وعندما تقدمت السن بيحيى حتى ناء بالوزارة ، لم يكن مثارا للدهشة ان يعين هارون جعفر في هذا المنصب .

ولقد بلغ من تعلق هارون بصفيه جعفر ومبالغته في تكريمه والاغداق عليه ان زوجة أخته العباسة .

ولكن هذه الصلات الوثيقة لم تشفع للبرامكة عندما اشتد جنون العظمة بهارون وطفت عليه الشكوك والغيرة . فبعد سنوات لم يطل أمدها انقلب على صفيه جعفر فأطاح برقبته تحت سيف الجلاد ، ومن قبله اختـــه العباسة زوجة جعفر ، وفي سورة جنون تملكته أقسم ان يهلك أسرة البرامكة جميعا . فزج بيحيى الشيخ وابنه الفضل في السجن وصادر ممتلكاتهما . وقد مات كلاهمـا في السجن ، وبموتهما انقرض كل اثر لأسرة البرامكة التى كانت مثال التفانى في خدمة أسرة العباسيين .

ولقد قيل ان التندم استحوذ على هارون حتى لقـد أمضى الأعوام الستة الأخيرة من حكمه وهو يحـــكم

الامبراطورية من قصره الصيفى ، حيث عاش فى غمرات الذهول والتعاسة . بيد ان التندم لم يكبه من شانه ان يرقق من طبعه . فقد استحال فى العزلة التى فرضها على نفسه الى انسان اشد قسوة ، حتى ان المحيطين به ، وفى عدادهم ولداه ، اخذوا يتآمرون عليه .

ولقد ووجه فى اخريات عهده بثورة خطـــيرة فى ولاية خراسان . فقام على راس جيش كبير فى عام ٨٠٨ رغم اصابته بالسرطان لمحـــاربة المتمردين الذين كانوا بقيادة رافع ابن الليثى حفيد نصر بن سيار آخر الولاة الأمويين على خراسان . وكان رافع الذى سجن لاتهامه بالخروج على تعاليم الاسلام لزواجه من سيدة سعت الى الطلاق من زوجها السابق بتخليها عن الديانة الاسلامية — قــد فر من سجنه ورفع لواء الثورة . كان ذلك اكثر مما يحتمله هارون ، بعد ان منيت الامبراطورية بخسائر جسيمة فى افريقية وآسيا الصــــغرى . ففى عهد والده انفصلت المغرب عن الخلافة تحت زعامة ادريس احد الباقين على قيد الحياة بعد ثورة ابراهيم فى البصرة عام ٧٦٢ . وفى عهد هارون أعلن الحكام المحليون فى القيروان استقلالهم ايضا ، وفى آخر المطاف تمكن الامبراطور البيزنطى — من طرد الجيوش العربية الى خارج الاناضول ، فكان فقدان جزء من الامبراطورية الشرقية اكثر مما يطيقه هارون .

واقد تمكن هارون من القضاء على ثورة رافع واسره . وفى هذا الوقت كان هارون يقضى نحبه ، بيد انه أصر على ان يجاء اليه بالاسير للاقتصاص منه . واذ هو راقد فى مضربه وحياته تتسرب ببطء ، استسلم لعملية شيطانية

اخيرا ، فقال لرافع : « سوف تقتل كما لم يقتل احد من قبلك » . وجرى تمزيق رافع وبتر اجزاء جسمه جزءا جزءا ، والقائها واحد تلو الآخر تحت قدمى الخليفة ، ولم تمض ساعات معدودة حتى لفظ هارون أيضا انفاسه، وكان فى الامبراطورية كثيرون ، منهم أولئك الذين كانوا الصق من غيرهم بالعرش ، تنفسوا الصعداء لرحيله .

الفصل الحادى عشر :

العصر الذهبى للعباسيين

ان اية آمال فى ان ذهاب هذا الطاغية الغيور يمكن ان تحل عهداً جديداً من السلام سرعان ما تبددت بعنف . ففى غضون ثلاثة اعوام تمزقت الخلافة بصراع مرير دموى بين ابنى هارون : محمد الامين : وعبد الله المأمون .

لقد خلف الامين اباه لسبب وحيد هو انه كان وحده دون ابناء هارون الأحد عشر من زوجة شرعية . اما الباقون فقد انجبهم من الجـوارى ، وكانت أم المأمون واحدة من عشر جاريات أهدتهن اليه زوجة زبيده لابعاده عن مغبة افتتن بها الخليفة . وكان الامين موفور القوة الجسدية فارع العود ضخم الهامة ، حتى قيل انه قتل أسداً بخنجره عندما أفلت من عقـاله وهجم عليه وهو يحتسى الخمر .

ولكن قوة الامين الجسدية لم تناظرها حصافة ونباهة فى فن الحـكم ، ويبدو أنه ورث عن أبيه أيضا طبعه المتشكك . وكان بصفة خاصة يرتاب فى اخيه المأمون الذى كان قد عين قبل وفاة هارون عام ٨٠٩ واليا على خراسان . وقد أكد الأمين هذا التعيين لابقـائه بصفة خاصة بعيداً عن العاصمة . بيد انه حتى على هـذا البعد لم يشعر بالأمان التام ، فأمر المأمون باعادة جيشه الى

العراق . فرفض المأمون ان يترك نفسه أعزل ، وخامرته الشكوك بدوره في ان الامين يهدف الى سلبه نصيبه من وصية أبيهما ، وقد اتجه الى الخـرسانيين لكي يشدوا أزره ، ولما كانت امه فارسية فان ذلك كان مزية لصالحه عندما عزله الأمين من منصبه ثم ارسل جيشا من اربعين الف رجل للقضاء عليه وعلى مؤيديه . وقد أبيدت حملة الامين عنـــد الرى قرب طهران على ايدى قـوة من الخرسانيين تناهز عشر عددها تحت قيادة طاهر بن حسين قائد المأمون ونصيره الرئيسى .

كان الدم يغلى الآن في عروق المأمون . لقد طلب اخوه الحرب ، ولسوف يعطيه ما طلب . وفضلا عن هذا فانه اذا لم يقض على الأمين فسوف يقضى عليه هو نفسه . وهكذا أمر طاهرا بالزحف الى بغـداد مصحوبا بجيش آخر تحت قيادة هرثمة ، القائد العباسى السابق في شمال افريقية .

والواقع ان الولاء كان شيئا نادرا في بغـــداد في تلك الأيام ، فعندما وصل جنود طاهر أمام العاصمة في عام ١٨١٢ ، رحبت العراق كلها من البصرة الى الموصل بالمأمون ونادت به خليفة ، وبدأ جنود الأمين يهجرونه الى جانب الغزاة . وبعد حصار شديد ومعارك طاحنة دامت أربعة عشر شهرا رهيبة ودمر فيها طاهر وهرثمة اسوار العاصمة ، كانت المدينة ذاتها خرائب وانقاضا عنـــدما سقط في ايدى المهاجمين ، وقد قتل الخليفة بأيدى رجال طاهر وحز رأسه وأرسل الى المأمون .

وهكذا بدأ حـــكم المأمون وهو ازهى عصر في تاريخ العباسيين وبغداد قد دمرت تدميرا ونصف سكانها قـد هلكوا . وخزانة الخلافة قد اقفرت . والواقع ان هذا

الدمار الشامل في العاصمة جعل ادارة دفة الحكم من بغداد أمرا مستبعدا ، وكذلك عاد المأمون غير آسف الى خراسان الصديقة ، حيث باشر الخلافة من مدينة مرو .

لكن اتخاذ مرو مقـــرا دائما للخلافة واعتبار العراق والشام مجرد ولايات نائية كان أكثر مما يطاق . ولا غرابة اذا بدأ الشـــاميون الآن في اظهار الذات . فانهم رغم الخنوع الذى ظل طابعهم طوال الستين عاما الماضية ، لم ينسوا بعد المذابح الفظيعة التى ارتكبتها ضدهم جحافل أبى مسلم . ثم أن القبائل حين رأت الخلافة تنزلق اكثر واكثر تحت سيطرة الفرس ، ما لبثت ان انحازت الى التمرد .

ومن ناحية أخرى فان اختيار المأمون خراسان مقرا لحكمه كان من شأنه ايضا أن يعرضه للوقوع تحت تأثير مجوسى سابق دخل الاسلام هو الفضـــل بن سهل . وكان الفضل قد بقى ليحكم خراسان عندما خرج المأمون لقتال أخيه ، وقد استطاع أن يؤلف بين السكان الفرس والاتراك ويجعل منهم مجموعة متجانسة . ومكافأة له على جهوده جعله الخليفة وزيرا عند عودته الى مرو ، وعين أخوه حسن واليا على بغداد . ولكن الفضل كان يضمر عداء دفينا للعرب ، وعندما اخذ فى وضع حكام من الفرس والاتراك للأقاليم التى تشمل مستوطنين من العرب منكرا عليهم كل حكم ذاتى ، فقد أبدى للعرب بكل جلاء كيف ينوى أن يجعل الخليفة يتصرف على هذا النحو فى الأجزاء الأخرى للامبراطورية . وفضلا عن ذلك فقد كان شديد الغيرة من قائدى الخليفة طاهر وهرثمة ، وقد اقنع المأمون فى أول فرصة بابعـــادهما عن خراسان . فأوفد طاهر الى الشام لمعالجة قلاقل القبائل

فيها ، وعين هرثمة واليا على شبه الجزيرة العربية . وقد قبل طاهر هذا التكليف دون تذمر واتجه الى الشام وفي عينيه بريق القتال ولكن هرثمة ذهب الى الخليفة قبل رحيله وحذره من ان الامبراطورية كلها في الغرب من جبال زاجروس سوف تفلت من قبضته ما لم يعد سريعا الى العراق . ولكن الفضل كانت له الكلمة الاخيرة لدى الخليفة ، فقد اعتقل هرثمة وزج به في السجن حيث توفى بعد فترة قصيرة ، ولعله لقى مصرعه بفضل الوزير الرهيب .

ولكن هذا النـــذير ما لبث أن تحقق سراعا . ففي عام ٨١٦ أجبر حسن على الأنسحاب من بغداد . فقد شهدت العاصمة وما حولها السلاح ضـــد مستشاري المأمون الفرس كما تنبأ هرثمة . وظل العراقيون مدى عدة أشهر في حالة فوضى ، الى ان ارسل اليهم في النهاية عم للخليفة من خراسان لاقرار الهدوء باعلان العفو عن المتمردين .

لكن الخليفة لم يعدل عن سياسته في ايثار الفرس على العرب . ففي العام التالي عين وريثا للعرش هو علي ابن موسى أحد أئمة الشيعة ومن نسل الخليفة علي . وفي نفس الوقت امر بأن يغير اللباس الرسمي في سائر أنحاء الأمبراطورية من اللون الاسود وهو الشعار العباسي الى لون الشيعة الاخضر . ولـــكي يظهر احتقاره للرأى العام السني فقد سمى وريثه (علي الرضا) . بل انه فتن بشخصية علي الرضا حتى ظل حينا وهو لا يفترق عنه ، وزوجه ابنته مبالغة في تكريمه .

ولقد كان التأثير المباشر لتعيين وريث للخـــلافة من الأقلية الشيعية دون الأغلبية السنية هو اثارة الهياج في

بغداد ، حيث دفع سكان العاصمة المأمون بالزندقة ، ونادوا بخلعه ايثارا لعمه ابراهيم .

واخيرا استيقظ المأمون على الخطر البالغ على وضعه ، والحاجة الى عمل جاهد مستميت لاسترداد عرشه .
ومن الغريب ان عليا الرضا هو الذى وجه صديقه ومولاه التوجيه السديد . فبناء على مشورة على ما لبث المأمون ان طرد الفضل ورتب ان يذهب الى بغداد بنفسه وأمر باعادة طاهر من الشام ليكون واليا على الامبراطورية الشرقية . ولما كان المأمون قد تفطن الآن الى مثالب وزيره فقد اشتد غضبه عليه ، وتكفلت عصبة من الحاقدين على الفضل بتخليص الخليفة الى الابد من مستشار السوء . ولم تمض فترة حتى وجد الوزير مقتولا فى حمامه . ولكن فى حين ان المأمون قد أنكر تآمره فى الحادث ، فقد بدا انه لم يساوره شىء من وخز الضمير .

ولقد كان شعور المأمون مختلفا تماما عندما مرض صديقه الحميم على وهما فى الطريق الى بغداد ثم توفى . ويقول البعض انه مات مسموما ، بل هناك من يتهمون المأمون بانه ازاحه من الطريق . وصحيح ان الامام الشيعى لم يكن بالرفيق الملائم لكى يصحب الخليفة فى رحلته لاستعادة العرش ، ومع ذلك فلابد من تبرئة المأمون من اى غدر بدر منه حيال صديقه ، منذ ان حزن حزنا شديدا لوفاته ، وأمر على الأثر ببناء ضريح كبير تخليدا لذكرى شاب ورع كان لديه بمثابة الأخ منذ ان قدم لاول مرة من خراسان . ولقد سمى مقر هذا الضريح الذى ضم رفات على الرضا وهارون الرشيد باسم « مشهد » ، وهو يمثل عند الفرس الشيعيين ثانى أقدس مكان فى

العالم بعد كربلاء ، المكان الذى استشهد فيه الحسين .

ولقد كان المأمون الى ان تحدث ثورة بغداد وضعه الشخصى يبدو قليل الاهتمام بشئون الحكم فيما لا يتجاوز خراســان . بيد انه اصبح منذ الآن رجلا يتملكه انبعاث جديد وعزم وليد . فبعد أن ادار ظهره لرجال خراسان وبدأ ارتياح العراقيين لوفاة على الرضا ، بادر بالقضاء على أى عائق يحول بينه وبين بغــداد . فعفــا عن عمه ابراهيم وأصدر عفوا عاما عن اهل المدينة الثائرة . وعمل المأمون بمشورة طاهر فغير اللباس الرسمى الى السواد من جديد ، حتى بدا الآن اقرب الى تعويض العراقيين عن تجاهله لهم طوال الاعوام الستة الماضية . وقد توج عودته بذلك اللون من الحفلات الباذخة التى يشغف بها اهل بغداد ، عندما توج ابنة الوالى المخلوع حسن بين مشاهد باهرة من الابهة والترف ، فقد امطرت العروس بالف من اللآلىء والف من اليواقيت من صحاف ذهبية وهى جالسة مع زوجها فوق بساط ذهبى مرصع باللؤلؤ والياقوت الأزرق ، فضلا عن الهدايا السنية التى اتحف بها المدعوون ، والمــــال الذى كان ينهــال عليهم بغير حســاب .

وبعد أن تحول المأمون من متفرج على الاحداث الى صانع لها ، شرع الآن فى تحويل العاصمة العباسية الى مركز للثقافة والعلم لا يضارعه شيء فى عصره . وقد أصبح بفضل شغفه الشديد بالفنون والعلوم أعظم الخلفاء رعاية للشعر وعلوم الدين والفلسفة والتنجيم والفلك . وكان يشجع ويستقدم رجال العلم والمعرفة دون نظر الى الجنس او الــدين : من مســيحيين ويهـــود ويونانيين ومجوس . وغدا نهر الثقافة الذى تدفق من قبل فى

اليونان من منابعه القديمة فى مصر وبابل وفينيقية ـ غدا يتدفق الآن من جديد فى منابعه الاصيلة لكى يعيد اليها الخصب مرة أخرى .

وفى هذا السبيل انشئت اكاديميات للتعليم العالى ، ومدرسة للقانون ، وقاعة للعلوم مزودة بمكتبة ومعمل ، وكليات ترصد لها الاعتمادات المالية من الدولة . وقد بذل جهد ضخم للارتفاع بالمكانة الادبية للخلافة . وأعدت بحوث كثيرة عن أعمال الفلاسفة والرياضيين اليونانيين وعن الاعمال الادبية والتاريخية الفارسية . وقد نقلت هذه المؤلفات وغيرها من الكتب الفارسية والسنسكريتية الى العربية على أيدى هيئة من المترجمين الذين اعدت لهم الاقامة فى « دار الحكمة » وهى مزيج من مكتبة واكاديمية ومكتب للترجمة ، وعهد بالاشراف عليها الى « شيخ المترجمين » وهو عربى مسيحى يدعى حنين بن اسحاق ، وقد تولى شخصيا ترجمة « جمهورية » افلاطون وكتاب « المقولات » و « الطبيعة » لارسطو ، ومؤلفات اقيلدس ، وتعد عن ترجمته لهذه المؤلفات مثل وزنها ذهبا .

وفى مجال الادب العربى شجع الشعراء والمؤرخين وعلماء الدين على تأليف مجلدات مستفيضة ومتعمقة . واكتسب النثر العربى الذى كان يمتاز أصلا بأحكام السبك ودقة الأسلوب طابع الجزالة الفارسية والتنميق الذى لازمه منذ ذلك العهد .

لقد كان هذا هو عصر الاسلام الذهبى ، لا فى مجال الحياه المرفهة فحسب ، ولكن كذلك فى التفوق الثقافى والاسهام فيه بالانجازات الكبرى ، والذى تهيأ فيه للعالم الاسلامى ان يؤثر أعظم التأثير فى الفكر الغربى آدابه

وعلومه ، وان يجعل هذا التأثير باقيا ممتدا ، فقد كان الفلاسفة والاطباء والكيميائيون والفلكيون والرياضيون والجغرافيون من العباسيين فى المشرق ومن العرب فى اسبانيا هم الذين طوروا التراث الفلسفى والعلمى للبلاد القديمة فى اليونان ومصر وفارس والهند ، ونسقوا بينه وبين المعتقدات الدينية لعالم يؤمن بآله واحد . وبهذا أوجدوا الترابط الجوهرى بين تعاليم ارسطو وجالين واقليدس وأفلاطون وتفكير الأوربيين المحدثين .

ولقد كان أعظم هؤلاء المنسقين ومن أكثر الفلاسفة تنوعا الذين ازدهروا فى عصر العباسيين الذهبى هو ابو على الحسين بن سينا . كان فارسيا من أهل بخارى ، وقد اكتسب لنفسه لقب « شيخ المتعلمين » لغزارة علمه . لقد بدأ سيرته فى الحياة عند نهاية القرن العاشر بشفاء سلطان بخارى ، الذى منح هذا الطبيب الشاب ، عرفانا بخدمته ، حرية استخدام مكتبته الزاخرة بالمصنفات . وقد تهيأ لابن سينا وهو فى الحادية والعشرين أن يقرأ كل كتاب ضمته مكتبة راعية ، ثم انشأ يدبج مؤلفاته هو ، وقبل وفاته فى أخريات الخمسين من عمره كان قد اتم تأليف قرابة مائة كتاب ، سجلت دائرة كبيرة من شتى موضوعات كالفلسفة ، والفن ، والشعر ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وعلوم الدين . وكان من مؤلفاته سيل لا يكاد ينقطع من دوائر المعارف فى الفلسفة والعلوم ، تأثر فيها بأفلاطون وأرسطو . وعمل على تقنين الفكر والأبحاث الطبية لليونانيين والعرب ، وتطوير نظريات جديدة لعلاج العديد من الأمراض المعدية . وكما حدث لمؤلفات جابر والرازى ، فقد ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية ، وقد ظلت حتى القرن السابع عشر وهى لا تزال المرشد والموجه الرئيسى لعلماء الطب فى الغرب . واما عن

اسهامه فى خدمة العالم العربى والفـــارسى فى عصر العباسيين ، فيمكن أن يقال بحق انه اسدى أكثر من اى فيلسوف أو مؤرخ آخر كثير فى ترجمة علوم ومعارف اليونان وتقديمها الى العالم الاسلامى . والواقع ان أعمال ابن سينا قد شكلت القنطرة الاساسية فى الجسر الذى بناه المسلمون بين ثقافات اليونان القـــديمة وأوربا الحديثة .

واذا كان ابن سينا أعظم الفلاسفة الذين عاونوا فى التنسيق والمواءمة بين ارسطو وافلاطون وبين الاسلام ، فانه لم يكن الوحيد فى هذا المضمار ، اذ سبقه الى ذلك بقرن من الزمان يعقوب بن اسحق الكندى الذى ولد من أصل عربى صرف فى الكوفة والذى اثبت ، مثل ابن سينا انه فيلسوف . فبفضل تنقيبه فى علوم الفلك والهندسة والكيمياء وطب العيون والموسيقى ، أستطاع أن يؤلف أكثر من مائتى وخمسين كتابا ترجم الكثير منهـا الى اللاتينية . وكان لنظـــرياته الهندسية المؤسسة على القواعد الرياضية اليونانية تأثيرها لدى روجر بيكون ، كما كان لمؤلفاته فى الموسيقى ، التى تأثر فيها ايضا بما كان عند اليونانيين ، الريادة فى هذا المضمار الجديد . وكان من بين معاصريه القريبين محمد بن طرخان الفارابى من بلاد ما وراء النهر ، الذى عمـــل على تطوير النظريات السياسية والفلسفية لأفلاطون وارسطو وتطبيقها فى الحياة العربية . وكان الفارابى ذا تنوع مثل الكندى ، فألف كتبا فى الطب والموسيقى والرياضيات . كما كان عازفا بارعا على العود ، حتى قيل انه كان فى قدرته التأثير فى نفوس المستمعين الى حد استثارة دموعهم او ضحكاتهم او هدهدتهم للنوم .

وقد امتازت خلافة المأمون أعظم امتياز ايضا بالتقدم في الرياضيات . والواقع أن ابرز وأبقى اسهام للعرب في تنوير وتعليم الغرب انما كان ادخال الاعداد العربية الذي كان الفضل فيه لمحمد بن موسى الخوارزمي أعظم الرياضيين المعاصرين عندئذ والعالم الفلكي المبرز . لقد ولد الخوارزمي كما يدل اسمه في خوارزم في وادي بلاد النهر عام ٧٨٠ ، وكان حجة في وضع اقدم المؤلفات المعروفة في الحساب والجبر . ولقد استخدمت هـذه المؤلفات في أوربا ككتب مدرسية نموذجية في هـذا المضمار حتى القرن السادس عشر ، ومن خلالها تلقت أوربا كلا من نظام الاعداد العربية - المأخوذة اصلا عن القواعد الحسابية في الهند - وعلم الجبر . ولولا هذا النظام العربي لكان من المحال أن تستمر أوربا في اتباع نظام الأعداد الروماني العسير . وكان عمر الخيام الذي تقوم شهرته على الشعر وكان مع ذلك من علماء الرياضيات والفلك المقتـــــدرين ، من بين أولئك الذين تأثروا بالخوارزمي .

وقد تقدم علم الفلك خطوات بالغة الاهمية في القرن التاسع تحت رعاية العبـــاسيين ، ومثله في ذلك علم الجغرافيا . ومما هو جدير بالتنويه انه قداجريت حسابات دقيقة لحجم ومحيط الأرض ، التي أمر علمــــاء الفلك العرب على أنهــــا كروية . وقد ترجمت هذه المؤلفات العربية وغيرها فيما بعد الى اللاتينية .

ويرجع الفضل في تقدم علم الجغرافيا الى الاهتمام بالبلاد الأجنبية الذي اثارة التجار والملاحون العرب ، والى الاتساع الشاسع الذي بلغته الامبراطورية العربية ذاتها . وقد تولى الكندي وغيره ترجمة مؤلفات بطليموس

لاقت عليها من اقبال كبير . واستخدم الخوارزمى هذه المادة فى أبحاث الخاصة ، وتولى بدوره تأليف مصنف جغرافى من اعداده الخاص هو « شكل الأرض » ، الذى أخذ كأساس لأبحاث أخرى . وبمضى الوقت تقدمت الجغرافيا التفصيلية ، وبحلول القرن الثالث عشر كان للعباسيين أن يأتوا بواحد من أكبر علماء الجغرافيا فى كل العصور — ياقوت بن عبد الله الحموى ، وهو يونانى بدأ حياته كعبد فى الشام ، وأصبح قاموسه الجغرافى الذى أتمه عام ١٢٢٨ واحدا من أعظم الموسوعات فى كل العصور . لقد فتح ياقوت آفاقا جديدة بمؤلفه ذلك الذى لم يشتمل فقط على كافة المعرفة الجغرافية القائمة ، ولكنه أضاف معلومات جديدة عن الأصول التاريخية والعرقية للأقطار التى شملها .

ولقد قدر للخلافة العباسية أيضا أن تحقق تقدما رائعا فى علم تدوين التاريخ . كانت البداية فى القرن التاسع على يد جعفر الطبرى ، واستمر بعدها موكب طويل من المؤرخين المسلمين على مدار سبعمائة عام حتى الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر ، ولقد ولد الطبرى الذى يعد أعظم هؤلاء المؤرخين جميعا عام ٨٣٨ فى طبرستان جنوبى بحر قزوين . واليه يرجع الفضل فى تأليف أول تاريخ عالمى باللغة العربية ، وهو كتابه المشهور (تاريخ الرسل والملوك) الذى بدأ بخلق الكون واستطرد حتى عام ٩١٥ . كان الطبرى غزير المادة مثال التفانى فى العمل . وقيل انه كان يكتب اربعين صفحة كل يوم على مدار الاربعين عاما التى استغرقها فى اتمام ذلك العمل الضخم ، وانه باع أكمام قميصه لشراء طعام لاسفاره بحثا عن المادة فى مصادرها ، وهى

أسفار حملته الى أقاصي الأركان في العـــــراق وفارس والشام ومصر .

وتلاه في الترتيب التاريخي أبو الحسن المسعودي ، من أبناء بغداد ، وقد سمي (هيرودت العرب) . وقد نقب المسعودي بكتابه المعـــروف باسم « مروج الذهب ومعادن الجوهر » في تواريخ المسلمين واليهود والرومان والهنود ، وأكد دعوى مثيرة تقول بأنه عند بدء الخليقة كان البحر أرضا وكانت الأرض بحرا . كما نهج المسعودي نهجا جديدا في أسلوب تدوين السير ، فبدلا من تسجيل الأحداث وفقا لترتيبها وتسلسلها ، كما فعل الطبري ، عمد الى تجميعها ووصلها بالأسر الحاكمة والشخصيات . وبعد قرنين جاء عز الدين بن الأثير ، الذي تولى في كتابه « الكامل في التاريخ » تلخيص وتركيز المؤلف التاريخي الكبير لابن الطبري ، ثم زاد عليه لكي يغطي فتـرة الحروب الصليبية . وفي القرن الثالث عشر كان أحمد ابن محمد بن خلقان – من نسل يحيى البرمكي وزير هارون الرشـــــيد ، أول مسلم يصنف قـاموسا في السـير والشخصيات القومية . وجاء في أعقاب ابن خلقـان ، بعد سقوط الخــــلافة العباسية ، أبو الفدا ، سليل صلاح الدين ، الذي تولى بدوره تلخيص تاريخ ابن الأثير وتابع الوقـــائع الى تاريخ وفاته في عام ١٣٣٢ . ومن المصادفات ان هذا العام نفسه قد شهد في تونس مولد آخر أكابر المؤرخين العرب ، عبد الرحمن بن خلدون .

انحدر ابن خلدون من أسرة عربية في اسبانيا كانت قد هاجرت من اليمن في القرن التاسع . وقد بدأ حياته موظفا في الحكومة في عهد سلطان غرناطة عام ١٣٦١ ، بعد انقضاء نيف وثلاثمائة عام على زوال الخـلافة الأموية

فى اسبانيا . ولكن نظرا لما أثارته صداقته للسلطان من حسد وزيره القوى المغرض ، انسحب ابن خلدون الى الجزائر حيث بدأ اعداد مؤلف عن تاريخ الفلسفة عند العرب والفرس والبربر ، فى مدونة من ثلاثة أجزاء ، اشتهر الجزء الاول منها باسم « مقدمة ابن خلدون » .
وقد نهج ابن خلدون فى هذا المصنف الكبير نهجا جديدا تماما باصطناع دراسة اجتماعية للتطـــورات والوقائع التاريخية تربط بين العوامل المؤثرة كالمناخ والجغرافيا وكذلك الأحوال الدينية والسياسية ، وبين الســلوك وتفاعل الأحداث عند العـــــرب وما كان يطرأ على امبراطوريتهم من ازدهار وانحدار .

وكان ابن خلدون ، مثل الطبرى ، يحب الأسفار والترحال ، وفى عام ١٣٨٢ حمله السعى وراء مواد لعمله الضخم الى السفر الى مصر ، حيث أصبح لأول عهده بها محاضرا فى الأزهر ، ثم عين كبيرا للقضاة فى القاهرة فى عهد أحد سلاطين المماليك. وبعد سنوات قلائل صحب جيش المماليك الى الشام لمحاربة المغول ، ويقـــال ان تيمور لنك زعيم المغول استقبله كمبعوث للمماليك .
وتعد هذه المغامرة الفــريدة بالنسبة لابن خلدون تجربة أخرى فى العلاقات الانسانية لتأكيد دراساته الاجتماعية الكبرى ، التى ظلت حتى اليوم منقطعة النظير كمرشد فلسفى وكمادة وثيقة عن طبيعة واخـــلاق ومزاج الامة العربية .

تلك ، ومثلها كثير ، هى المعالم البارزة فى عصر التنوير والمعرفة الاسلامى ، الذى بدأ فى أوائل عهد الخلافة العباسية وكان مبعث الهام للثورة العلمية فى أوربا فى القرن السابع عشر . ولم يسبق لحاكم عربى أن عمل

على تشجيع وتقدم الرقى الثقـــافي مثلما عمل الخليفة المامون . وعندما توفى وهو فى الثامنة والأربعين بالتيفويد كانت البلاد تنعم بالامن والرخاء . وقد يذكر الناس هارون الرشيد مقرونا بتألق وابهة ألف ليلة وليلة ، ولكن عصر التفوق والسيادة العباسى قد استهل ابو جعفر ، ثم نضج واينع فى عهد المامون ، حتى لقد أضحت عاصمة الخلافة أعظم مركز للثقافة والعلم والترف فى العالم فى وقت كان فيه قادة أوربا لا يستطيعون حتى كتابة أسمائهم . ومن المؤسى أنه فى غضون أقل من ســــبعين عاما بعد وفاة المأمون ، وصل تفوق العباسيين السياسى الى منتهاه ، وسارت الخلافة مرة اخرى فى طريق التدهور .

القسم الثالث

التفكك والأفول

الفصل الثاني عشر :

انفصال مصـــــر عن الخلافة

كان من بين الأخطاء الذريعة التى ارتكبها العباسيون لتخفيف قبضتهم على أطراف الامبراطورية . فانهم ، خلافا للأمويين ، كانوا أكثر اهتماما بالعمـــل على اثراء وتجميل مركز الخلافة منهم بفرض وتثبيت حكمهم فى كافة أرجائها ، وكان حتما أن تفضى هذه الحــــال الى تشجيع الولايات النائية على خلع نير حكمهم . ثم كان تحدى عبد الرحمن بن معاوية لبغداد حقيقا أن يغرى حكام الولايات الاخرى بانتهاج هذا المسلك .

والواقع انه ما حل عام ٨٠١ حتى حذت تونس حذو اسبانيا بزعامة واليها ابراهيم بن الاغلب . كان قد عينه هارون الرشيد فى العام السابق ، وسرعان ما أقام لنفسه امارة مستقلة فى تونس ، وســـك لنفسه عملة خاصة حرص على أن يرفع منها اسم الخليفة . وعلى مدار المئة عام التالية ظل هو وخلفاؤه من الاغالبة يمارسون الحكم مستقلين عن كل سيادة عليا من عاصمتهم فى القيروان ، حيث أقاموا فى الموقع الاصلى الذى بنى فيه عقبة بن نافع مسجده — وهو أول فاتح عربى فى شمال أفريقيـــة

ومؤسسو القيروان ـ اقاموا المسجد الكبير الذى بقى حتى اليوم اثرا لمن جعلوا من تونس أمة مستقلة وهيـــاوا للقيروان ان تعد فى نظر مسلمى المغرب رابع المدن الاسلامية بعد مكة والمدينة وبيت المقدس . ولقد بلغ من سيطرة وتأثير الاغالبة فى القرن التاسع انهم استطاعوا ازالة كل الآثار الباقية للغة اللاتينية فى شمال افريقية ، وظلت القصيدة الاسلامية فى مدى الألف سنة التـــالية هى السارية .

بل ان الاغالبة لم يقنعوا بما حققوه من تأكيد استقلالهم عن بغداد وازالة التأثير اللاتينى من شمال افريقية ، بل شنوا هجومهم عبر البحر الابيض المتوسط عندما غزوا فى عام ٨٢٧ جزيرة صقلية التى كانت اذ ذاك احدى ولايات الامبراطورية البيزنطية . لقد كان هذا أول تأكيد ضخم لقوة العرب البحرية ، التى ظلت تتزايد باطراد منذ فتح مصر وما تلاه من القضـــــــاء على الاسطول البيزنطى . وقـد ادت النجاحات الاخرى التى احرزها العرب مثل الاستيلاء على قبرص وفتح اسبانيا واحتلال جزر البليار ، الى جانب الغارات المتقطعة التى كان يقوم بها القراصنة العرب والبربر على صـــقلية وكورسيكا وسردينيا ـ الى مساعدة العرب فى التغلب على خوفهم من البحر ، وهكذا نزع الاغالبة فى جسارة الى انشـــاء اسطول لهم جيد التسليح يتمكنون به من مد رقعـــة ممتلكاتهم الى داخل اوربا . وعنـــدما تلقى الاغالبة فى عام ٨٢٧ نداء من طوائف معينـــة من الثوار فى صقلية لمساعدتهم ضد سيطرة الروم ، استجاب الامير الاغلبى

وارسل أسطولا من سبعين سفينة وجيشــا من عشرة آلاف رجل هبط على الساحل الغربي للجزيرة ، وبحلول عام ٨٣١ سقطت باليرمو ، وسقطت مسينا بعدها بأثنى عشر عاما ، وفي حين كان الغزو العربي للجزيرة يمتد ببطء ، قام الأغالبة بالاغارة على سواحل ايطاليــا ، فاستولوا على باري ، وهددوا نابلي وروما ، حتى اضطر البابا الى دفع الجزية مدى عامين . وفي عام ٨٦٩ تم الاستيلاء على مالطــة ، وفي عام ٩٠٢ أتم الأغالبة غزو صقلية ، التي أصبحت على امتداد الـ ١٨٩ عاما التالية جزءا من العالم العربي .

ولم تكن هذه أول مرة سمعت فيها أسرة حاكمة من المنشقين الى بسط حدود الامبراطورية العربية في وقت كانت فيه السلطة المركزية آخذة في الضعف . ولكن ، في حين ان الامويين انفصلوا في وقت كان فيه العباسيون يدخلون عصرهم الذهبي ، فان الأغالبة عنــدما ابتلعوا صقلية ، كانت الخلافة ذاتهــا قد بدأت تتفسخ من الداخل . ومن المفارقات ان السبب في هذا الانهيار الداخلي كان هو نفس العامل الذي أسهم باكبر قــدر في قيام العصر العباسي الذهبي ، الا وهو غلبة التأثير الأجنبي على الفكر والعمل العربي . وحتى في موضوع توارث الخلافة فان العباسيين لم يعودوا يحرصون على الدم العربي . فان هارون الرشيد والمأمون لم يكونا فقط نصف فارسيين ، بل أربعــة وثلاثين من الخلفاء السبعة والثلاثين الذين جاءوا بعد أبي العباس ولدوا من أمهات من الجواري الفارسيات أو التركيات ، ولم يولد من دماء عربية خالصة سوى أبي العباس وابنه الأمين .

وكان تأثير الروم والفرس هو الغالب في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في بغداد ، ولم يعد للتأثير العربي مكان الصدارة . ومع وجود وزراء فارسيين يصرفون شئون الحكومة وولاة من الفرس يحكمون الاقاليم ، صار حرس الخليفة الخاص والجيش الامبراطوري مملوءاً بالخراسانيين ، وكانت الحملات العسكرية تشكل غالبيتها من الفرس أو الاتراك .

وعندما ولي المعتصم شقيق المأمون الخلافة بعده أخذ النفوذ التركي يحل محل النفوذ الفارسي . فقد كانت أم الخليفة الجديد جارية من التركمان في حريم هارون ، وظل المعتصم طوال حياته وهو يتكلم لغتها ويتبنى عادات جنسها . وبسبب تشككه في الفرس والعرب على السواء ، فقد استبدل بحرسه الخاص من الخراسانيين ضباطاً وجنوداً من التركمان عرفوا باسم المماليك ، وجاء معظمهم من القوقاز وتركستان وفرغانة وغيرها من أنحاء آسيا الوسطى حيث وقعوا هم أو آباؤهم في الاسر على عهد فتوح الامويين . ولقد جيء بالالوف منهم كل عام الى العراق ومصر وغيرهما من أقطار الامبراطورية ، ولكونهم لم يدربوا على شيء سوى فن الحرب ، فان هؤلاء المجالدين الاشداء سرعان ما ارتقوا في صفوف جيش الخليفة .

وقبل نهاية حكم المعتصم عام ٨٤٢ ، استولى الاتراك على قيادة الجيش وأصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الخليفة . وقد لعبت هذه القوة برءوسهم حتى لقد أخذ الاحفاد الاتراك يتصرفون في شوارع بغداد تصرفات قطاع الطرق ، فكانوا يعتدون على المارة ويسبونهم لمجرد التلذذ

بالاساءة اليهم واذلالهم . وعندما قصر الخليفة فى توبيخ جنــوده وزجرهم ، تجمعت طوائف المواطنين للدفاع عن انفسهم ، بيد ان المعتصم لم يشـــأ أن يعرض اتراكه للازعاج ، فقد سارع ينقل مقر حكومته ، مع افراد حرسه القساة ، الى السامرا فى اعالى نهر الدجلة ، حيث بنى عاصمة جديدة ، وعاقب ابناء عاصمته المنكودين بحملهم على اداء ضرائب للوفاة بتكاليف العاصمة الجديدة .

ولقد كانت هذه الحركة مشئومة ، كما دل على ذلك تطور الاحداث ، اذ كانت نتيجتها الرئيسية وضع الخليفة كليا تحت رحمة ضباطه الاتراك ، والمزيد من ابعاده عن تأثير الراى العام . وقد لا يكون هذا محل معارضة من جانب المعتصم ونصفه تركى ، ولكن بالنسبة الى الخلفاء الثمانية الذين تحتم عليهم أن يقيموا فى السامرا من بعده على مدار الثمانية والخمسين عاما التالية ، فان العاصمة الجديدة لم تمد أكثر من سجن يسمح لهم فيه بالوجود والبقاء طالما اطاعوا سجانيهم الاتراك . وقد فقدوا بحلول النصف الاخير للقرن كل سيطرة على الخلافة . وأصبح رجال الحرس الاتراك هم السلطة الحاكمة العليا ، ينصبون او يعزلون الخلفاء طبقا لاهــوائهم ونزواتهم ، ويقتلون او يسملون أعين كل من يرفض تنفيذ اوامرهم او يحــاول الافلات من قبضتهم .

لكن اذا كان الاتراك قد اســـــــتطاعوا السيطرة على الخلفاء فى السامرا ، فانهم كانو أقل نجاحا فيما يتعلق بالولايات . فقد حدثت بعد وفـاة المعتصم سـلسلة من الثورات هزت الامبراطورية من قواعــدها فى فلســطين

وشبه الجزيرة العربية ومصر وفارس وارمينية ، بل حتى تحت انوفهم في العراق . فان الولايات لم تشاطر الخليفة الراحل تعلقه بالمماليك التركمانيين ، اذ كانوا يعدونهم جنسا اجنبيا من العبيد ينبغى حصرهم في ثكنات الجيش خاضعين للنظام الواجب . وفضلا عن ذلك فان نظام الحكم في الولايات كان يسمح بقدر من الحكم الذاتي المحلي في ممتلكات الخلافة النائية ، مما جعل سلطة العاصمة المركزية متراخيـة . وعنـدما اصبح الولاة يتوارثون مناصبهم ، فقد اخذوا بالتدريج يحكون انوفهم في وجه العاصمة ، ولقد بدأ نجاح انفصال الاغالبة في تونس تسرى عدواه الى مصر ، وانفصل حاكم سجستان في شرقي فارس عن الخلافة في عهد المعتز عام ٨٦٩ .

وفى محاولة لوقف هذا التيار الخطر ، ارسل الاتراك واحدا من جنسهم الى مصر ممثلا للخليفة الحاكم الاسمى ، الذى بقى في السامرا . كان احمد بن طولون هو اسم هذا الابن لعبد مملوك سابق من فرغانة . وكان ابوه قد أهدى الى المأمون من والى بخارى ، ونشأ الابن في بلاط الخليفة لكي يتعلم الجندية . وكان أول ما ظهر ابن طولون في عام ٨٦٦ ، عنـدما حاول الخليفة المستعين الفرار من السامرا الى بغداد . ولكي يستدرجه الاتراك من مخبئه عرضوا عليه الانسحاب في امان الى المدينة ، ولكنه عندما خرج من المخبأ اقتيد الى بيت قاتل مأجور في واسط حيث قتل . كان ابن طولون هو قاتل الخليفة ، ومكافأة له على الخدمة الدموية التى اداها لسادته ، فقد رقى وارسل الى مصر لتهدئة الاحوال فيها مع قوة كبيرة من الاتراك تحت قيادته .

وبينما كان ابن طولون منهمكا في هـــذه المهمة حدث انفجار كبير في العراق ذاته . كان هذا هو ما عرف باسم « ثورة الزنج » أي الزنوج الأحباش الذين كانوا يعملون في مناجم الملح الصخري في دلتا نهر الفرات . وكان قائد هذه الثورة فارسيا خارجا على القانون رغم انه من نسل الخليفة على . وكان السخط في العراق على الخلافة والمسيطرين عليها من الاتراك قد بلغ مداه حتى حتى استطاع الزنج في مدى عامين الاستيلاء على البصرة والدلتا كلهـــــا . ثم انتشروا في كافة الاتجاهات حتى استولوا على واسط والبحــــــرين ، وغزوا بعــد ذلك فارس . ولقــد ظل هؤلاء الزنج الأقوياء الذين كانوا يستلهمون ميـــــــادىء الخوارج مدى أربعة عشر عاما وهم يبثون الخوف في الخلافة ويهزمون جيشا بعد جيش ويأخذون الالوف من الاسرى رهائن . وفي النهاية دب الانقسام الى صفوفهم وأوهى قوتهم ، فقتل زعيمهم عام ٨٨٣ وقضى على الحركة .

ان الجهود التي بذلت لسحق هذه الثورة ، التي قدر البعض خسائرها في الارواح بنصف مليون ، قد ادت الى استنزاف خزائن الخلافة في السامرا . ولما كان الخليفة القائم في الحكم وهو المعتمد لم ينس مصير اخيه المعتز الذي خلعه الاتراك لتقصيره في دفع رواتب الجيش الذي ارسل الى سجستان ، فانه أمر الولايات بتقديم معونات مالية . وقد دفعت كلها ماعدا مصر ، حيث اعتزم ابن طولون الآن ان يستغل ضعف الخلافة لتأسيس مملكة خاصة به . كان هذا التحدي بمثابة نقطة تحول في علاقة مصر بالبلاد العربية الاخرى . ذلك ان مصر اصبحت

منذ ذلك الحين ، باستثناء عودة قصيرة الى السيادة العباسية فى مستهل القرن العاشر ، دولة مستقلا فعلا ، الى ان وضعت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بستمائة سنة نهاية للحكم الذاتى فى العالم العربى .

وكان اول عمل قام به ابن طولون كحاكم مصر المستقل هو تنظيم جيش من مائة الف من الاتراك والعبيد الزنوج اقتضى منهم يمين الولاء له شخصيا . وفيما كانت جيوش الخليفة تضمد جراحها بعد ثورة الزنج ، انتهز فرصة غزو البيزنطيين للشام وعرض ارسال جنود للدفاع عن ممتلكات الخليفة . فقبل العرض ، وخرج ابن طولون من الفسطاط على رأس جيشه ، تاركا ابنه مشرفا على مصر . وكانت مقاومة الروم ضعيفة ، وتم اخلاء الشام من الغزاة بغير صعوبة . وقد تظاهر ابن طولون بمطاردة العدو المنسحب الى داخل الاراضى البيزنطية ، فزحف للاستيلاء على الموصل . ولكن قبل ان يصل الى هدفه ، جاءته الانباء بأن ابنه ، فى محاولة منه لتحقيق نصر له هو نفسه ، زحف من الفسطاط وهاجم الاغالبة فى تونس . واذ لم تكن لديه قوات كافية فقد منى هذا الفتى بهزيمة نكراء ، وفى الوقت الذى عاد فيه ابن طولون لمعالجة الموقف كان تقهقر الابن شاملا . ولكى يلقنه الأب درسا فقد امر بجلده واجبره على ان يأمر بنفسه بتمزيق اوصال من كانوا مسئولين عن تشجيعه على هذه الحماقة حتى الموت .

وفى خلال ذلك استانف جيش ابن طولون الزحف للاستيلاء على الموصل ، فقد عقد هذا الحاكم الشاب الطموح الذى اصبح الآن مسيطرا على مصر والشام

وشمال العراق ، العزم على أسر الخليفة واحضاره الى مصر . انه لم يقنع بما ظفر به حتى الآن ، وأراد أن يحكم الامبراطورية كلها مستندا الى سلطة الخليفة . وهكذا دعى المعتمد لكى ينضم الى قوات ابن طولون التى تحتل الموصل لكى تبسط حراستها له الى مصر ، حيث يتخذ فيها عاصمته بعيدا عن المشاحنات والاضطرابات فى العراق . وكادت هذه الخطة الجريئة العجيبة ان تنجح فان الخليفة فضل أن يكون تابعا لابن طولون فى الفسطاط على أسره الحالى فى السامرا ، وهكذا قبل دعوة ابن طولون وخرج الى الموصل ، ولكن قبض عليه أخوه الموفق المالىء للأتراك ، وأعاده عنـــوة الى محبسه فى قصر السامرا .

وبعد حبوط هذه المحـــاولة من جانب ابن طولون للاستئثار بالسلطة العليا ، شرع فى تدعيم قبضته على الشام ، التى أصبحت الآن تحكم من وادى النيل لأول مرة منذ العصر الفرعونى . ومن اجل هذه الغاية بنى قاعدة بحـــــرية فى عكا ، واقام حاميات فى مراكز استراتيجية . كما عمل على تطوير الزراعة وتحسين الرى، مثلما فعل من قبل فى مصر . ولكن حامياته لم تلبث فى السنوات الأخيرة من حكمه ان بدات فى الخروج عليه منضمة الى الخليفة تحت اغراء الرشوة القوى،وعلى الرغم من بقائه حاكما اسميا للشام حتى وفـاته عام ٨٨٤ لأن الخليفة فضل تحاشى المواجهة معه ، فانه لم يعد يستطيع الآن بتاتا الاعتماد على ولاء أهل الشام . وباضطراره الى الانسحاب على هذه الصورة ، ركز اهتمامه على مهـــام التحسين الاجتماعى والمعمـــــارى فى مصر . فبنى أول

مستشفى فى مصر لعلاج المرضى وقصرا منيفا لنفسه . وقد كسيت جدران القصر بالذهب ، وازدانت بنقوش تصور ابن طولون وزوجاته ومغنياته يلبسون تيجانا من ذهب ، وأقام فى حدائق القصر الفناء قفصا كبيرا للطيور وحديقة حيوان وبركة من الزئبق تطفو فوقها حشايا من الجلد منفوخة بالهواء لكى تهدهد الحاكم وأصحابه فيستسلموا للنوم . وأعظم أثر له بالطبع هو مسجد ابن طولون فى القاهرة القديمة ، وقد حاكى فى مئذنته الهرمية المئذنة الأصلية لجامع المعتصم فى السامرا . يحيط بصحن الجامع الرحب من جوانبه الأربعة رواق ضخم ذو أعمدة وأفريز نقشت عليه آيات من القرآن .

وقد اراد ابن طولون ، مثل كل فاتح أو مغتصب فى تلك العهود ، أن يؤسس أسرة حاكمة من ذريته . بيد أن نجاحه هنا كان قصير الأجل . فان ابنه خمارويه المغامر الأحمق الذى حاول الاطاحة بالاغالبة أثبت أنه خلف تافه ، اذ كان مسرفا متلافا ومعاقرا للخمر بغير حساب حتى باء باللعنة من المسلمين المؤمنين ، وبعد أن جاء ابن آخر وحفيدان اثبتوا انهم ليسوا أحسن حالا ، كان ذلك ايذانا بنهاية الأسرة الطولونية . وفى عام ٩٠٥ عادت مصر لمدة الثلاثين عاما التالية الى سيطرة العباسيين .

وقد علق بعض المؤرخين على فشل التجربة الطولونية بأن زعيمها لم تكن له قاعدة وطنية فى الاراضى التى بسط سلطانه عليها ومن ثم كانت قصيرة الامد . كان الحاكم ذاته دخيلا يضطر الى جلب أجناده من شتى المصادر الأجنبية ، وحكم كهذا لا يمكن استدامته .

والواقع ان هذا التعليل يمكن ان ينطبق بانتظام عجيب على جميع العصبات التركية المتلفة التى ظلت على مدار الثلاثمائة والخمسين عاما التالية تتعاقب كسادة لخلفاء بغداد ، الى أن جاء المغول ومحوا الخلافة وعاصمتها من الوجود .

وكانت النتيجة لا مهرب منها . فقد حلت الفوضى والاعتلال بقيام سلسلة من الأسرات الحاكمة الهزيلة وجماعات الزنادقة فى سائر أرجاء الخلافة وأعلنوا استقلالهم . ومنذ ذلك الحين لم تعد الامبراطورية تعمل كوحدة قوة متماسكة . نعم ان قادة فرديين ذوى شهرة عالمية مثل عبد الرحمن الثالث فى اسبانيا وصلاح الدين وبيبرس المملوكى قدر لهم أن يظهروا فيما بعد ويستعيدوا المكانة الضائعة للمملكة العربية ، ولكن الخلافة كانت مؤسسة تلفظ انفاسها .

الفصل الثالث عشر :

صيف مشرق للأمويين في أسبانيا

بحلول منتصف القرن التاسع ، عندما بدأ التفكك في الامبراطورية العباسية ، كانت الوحدة التى اوجدها عبد الرحمن الاول فى الامارة الاموية باسبانيا تتفكك هى أيضا بسرعة . فبعد أربعة أجيال على وفاة مؤسسها ، بدأت الولايات والمدن الاسبانية تنتفض على حكم قرطبة. وأول ما بدأ هذا الفساد فى (رية) فى الجنوب وفى (أرغن) فى الشمال ، حيث تحالفت الأسرة الحاكمة القوطية ، رغم تحولها الى الاسلام ، مع ملوك ليون المسيحيين . ثم حذت حذوهم طليطلة القلقة بعد أن اثارتها قبائل البربر. وبعد ذلك انفصلت اشبيلية ، وجليقية ، ومرسية ، والجرف فى البرتغال . ثم جاء مسلم من نسل احد نبلاء القوط الغربيين هو عمر بن حفصون والب الثورة في الجنوب ضد الامير الحاكم وسيطر عليه مدى ثلاثين عاما ضد خلفيه ، فعزل قرطبة عن بقية اسبانيا ، بل سعى وان لم ينجح الى الاعتراف به واليا على اسبانيا من قبل الخليفة العباسي القائم وقتها في الحكم .

وهكذا بابتداء القرن العاشر أوشك ميراث عبد الرحمن الأول على الضياع ، وانكمشت الامارة الاموية الكبيرة

التى شملت فى وقت ما سبعة اثمان شبه جزيرة ايبريا الى بضعة اميال مربعة من الاراضى حول قرطبة ، ولكن فى عام ٩١٢ جاء شاب فى الثالثة والعشرين من عمره يحمل أسم مؤسسها الأشهر لكى يستعيدها ويرفعها الى أوج قوتها وشهرتها . كان عبد الرحمن الثالث الفارع الوسيم ذو العينين الزرقاوين من ام جارية مسيحية ، وقد خلف جده عبد الله ، وشرع من فوره فى استعادة الولايات الضائعة . فزحف من عاصمة المطوقة واستولى على (استجة) و (البيرة) و (جاين) . وبنهاية عام ٩١٣ كانت عاصمة (رية) تؤدى الجزية ، وفتحت اشبيلية ابوابها للأمير الجديد . وقد ظل ابن حفصون يقاتل بعناد فى الجنوب مدى أربعة سنوات أخرى ، ولكن عندما توفى عام ٩١٧ كان عبد الرحمن فى طريقه لاستعادة الولايات المفقودة الى نطاق قرطبة . وبقيت طليطلة التى يسيطر عليها البربر تقاوم وحدها فترة من الزمن ، ولكن بحلول عام ٩٣٢ انتهت مقاومة هذا المركز .

بيد ان متاعب عبد الرحمن لم تنته بعد . ففى افريقية جاءت أسرة علوية جديدة وطردت الاغالبة من القيروان . لقد تسموا باسم الفاطميين زعما بانهم من نسل فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وصمموا على الاطاحة بالبقية الباقية من الأمويين أعدائهم التقليديين واعلنوا الحرب على امارة قرطبة . ولكن وفاة ابن حفصون حرمتهم من عون يعولون عليه كطابور خامس فى أسبانيا ، وأدى بعد نظر عبد الرحمن فى بناء أسطول له الى احباط خططهم فى الغزو عن طريق البحر . وهكذا

توقف الفاطميون عما هموا به ، واستغل الامير الشاب ورطتهم فأخذ المبادرة فى يده وزحف الى افريقية حيث استولى على سبتة واجبر معظم ســاحل البربر على الولاء له .

ولكن كان لا يزال هناك اوردونو ملك ليون ولا مفر من أن يحسب حسابه . ذلك انه بينما كان عبد الرحمن يواجه التهديد الفاطمى فى الجنوب ، توغل أوردونو كثيرا فى الاراضى الاسلامية وأسر قائدا من الامويين وعلق رأسه على سور قلعة عند نهر دورو . فخرج عبدالرحمن الى الميــــدان فى عام ٩٢٠ وطرد اوردونو الى نافار واستولى على بامبلونة وخربهـــا ، ثم عاد منتصرا الى قرطبة . وعقب ذلك ظل يواصل الضغط على ليون ونافار حتى عام ٩٣٩ ، حينما اتحد الملكان المسيحيان واوشكت جيوشهما أن تبيد جيشه وكانت هذه الكارثة سببا فى أن يترك الاثنين وشأنهما فى ركنهما من اسبانيا ، فى مقابل معاهدة وقعت فى احتفال مشهور فى قرطبة اعترفت بسيادته فى ارجاء باقى شبه جزيرة ايبريا .

وقبل عشر سنوات من هذا الاحتكاك النهائى مع جيرانه المسيحيين كان عبد الرحمن قد نادى بنفسه خليفة ، لا من قبيل جنون العظمة ، ولكن لان الخلافة كانت تتهاوى بددا بعد أن أخذت كل من مصر وشمال افريقية والولايات الشرقية تؤكد استقلالها . فى هذه الظروف كانت اسبانيا العربية تعنى بالنسبة للعالم شيئا أكثر من هذه البقية المحطمة للامبراطورية العربية .

وفضلا عن ذلك فان بلاط قرطبة كان معدودا من أروع

ما شهده التاريخ ، ولم يكن يضارعه فى عصره سوى بلاد القسطنطينية . كان فيه مبعوثون معتمــدون من الامبراطور البيزنطى ومن بلاطات المانيا وايطاليا وفرنسا .
وكان القصر الملكى المطل على الوادى الأخضر الفسيح لنهر الوادى الكبير يضم اربعمائة حجرة بالاضافة الى مساكن لعدة الوف من العبيد وأفراد الحرس . وكان تعداد سكان قرطبة — وهو اليوم ١٨٠ الفا — يناهز ثمانمائة الف نسمة . وارتفع عدد المساجد الى سبعمائة . وكان فى المدينة ثلاثمائة من الحمامات العمومية فى وقت كانت فيه الشعوب الاوربية لا تزال تعتبر الاستحمام عادة وثنية .
وكانت الشوارع — وقوامها عشرة أميال — ممهدة ومضاءة ، وهو تقدم كان مقدرا الا تنعم به لندن وباريس قبل سبعمائة عام تالية ، كان المواطنون أثناءها يتحسسون طريقهم ليلا فى الظلام الحالك ويتخبطون فى وحول تغوص فيها الأقدام حتى الكعبين . وكانت المدينة تضم سبعين مكتبة عامة ، وفى عهد الحكم ، ابن عبد الرحمن ، الذى كان مشغوفا بالكتب ، جمعت مجموعة من أربعمائة الف كتاب من المكتبات العامة والخاصة فى الاسكندرية ودمشق وبغداد ، فى حين لم يكن يوجد فى أى مكان فى العالم أكثر من عشرة آلاف كتاب باللغة الانجليزية . وكان حكام ليون ونافار وبرشلونة يرسلون الى قرطبة اذا احتاجوا الى طبيب أو مهندس معمارى ، لا الى فرنسا أو المانيا .
وكانت جامعة قرطبة تجتذب الطلاب من أوربا وافريقية وآسيا ، وكانت معرفة القراءة والكتابة عامة ، حتى أكد المؤرخ رينهارت دوزى أن كل فرد تقريبا كان يقرأ

ويكتب ، فى حين ان معرفة القراءة والكتابة فى اوربا كانت لا تزال ميزة لرجال الدين وقلة من الكتبة المحترفين .

وفي النواحي الصناعية ايضا خطت اسبانيا خطوات واسعة تحت فيـــادة عبد الرحمن . فقد ازدهر النسج والمصنوعات الجلدية ، حتى ان مراكش تعلمت صناعتها الجلدية من اسبانيا العربية . وتقدمت صناعة الزجاج والخزف ، وكذلك استخراج معـــادن الذهب والفضة والحديد والرصاص . واشـــــتهرت وانتعشت الزراعة بفضل الري الذى ادخله العرب ، الذين جلبوا الى اسبانيا ايضا الموالح التى جاءت الى العالم العربى من الهند ، أو كذلك العنب والخـوخ والمشمش والقطن وقصب السكر . ولا يزال الطابع المغربى باديا فى حدائق وكروم اسبانيا الحديثة .

وازدهرت تجارة الصادرات التى كان يتولى نقلهـا أسطول عبد الرحمن التجارى الى اركان العالم البعيدة . وكانت انجلترا وفرنسا تستوردان منتجـات اسبانيا ، التى كانت تجد طريقها ايضا الى الشرق الاقصى فى الهند وآسيا الوسطى . وتشهد الاصول العربية لبعض المفردات البحرية الأوربية ، الحديثة مثل (اميرال) و (تعريفة) على مدى انتشار التأثير ، الذى احدثه أولئك الملاحون التجاريون العرب . كما ان العملة التى ادخلهـا العرب الاسبان قد افادت على مدار ، الاربعمائة عام التالية كأداة التبادل النقدى الوحيدة فى أجزاء من أوربا .

كان مثلٌ هذا الرخاء كفيلا بأن يجيء بايراد ضخم . فقد اصبحت تتدفق الآن فى خزانة الخليفة ستة ملايين

وربع مليون من الدينارات كل عام . ومن هذا المبلغ كان يحتفظ بالثلث كاحتياطى ، وثلث آخر ينفق على الجيش ، والثلث الباقى كان يخصص للأعمال والمبانى العامة .

وكان عبد الرحمن مكثرا فى اقامة المبانى . فقد بنى جامعة قرطبة وكثيرا من المساجد السبعمائة . وليس من شك فى أن من أجل أعماله هو قصر المرمر الرائع ، القائم على بعد أميال قليلة من قرطبة ، والذى اقامه خصيصا لحظيته الزهراء وسماه باسمها . فقد اشتمل على أكثر من اربعة آلاف من الأعمدة المرمرية جلبت من ايطاليا وقرطاجة وبيزنطية ، وقام بالعمل فيه عشرة آلاف من أرباب الحرف تحت اشراف أعظم مهندس معمارى بيزنطى فى ذلك العهد مدى عشرين عاما حتى أتموه . واليوم لم يبق منه سوى اسمه وقليل من الجدران والارضيات وأطلال الضاحية الملكية التى امتدت حول القصر وضمت أكثر من اثنى عشر الفا من الناس . أما الباقى فقد نقل بعد الغزو المسيحى فى القرن الخامس عشر لبناء الدير الشاسع فى سان جيرونيمو فى التلال المجاورة .

وقد أفلح الحكم خليفة عبد الرحمن فى المحافظة على تماسك الخلافة طوال الخمسة عشرة عاما من حكمه . ولكنه عندما توفى عام ٩٧٦ وخلفه ابنه هشام البالغ من العمر اثنى عشر عاما ، أصبح الحاكم الحقيقى لقرطبة شخص لا خلاق له يدعى محمد بن أبى أمير الذى تسمى تظاهرا باسم المنصور . وكان المنصور خلال حكم هشام كاتب رسائل فى البلاط ، ولكنه استطاع بعد وفاة الخليفة أن ينال الحظوة عند أرملته حتى استوزرته .

وبعد أن سيطر على حرس الخليفة الصبى وكانوا خليطا من اربعة آلاف من الاسرى الاوربيين الذين سماهم عبد الرحمن الصقالة وادخلهم فى الاسلام ـ جدد المنصور الحرب ضد لنون ونافار ، وفيما بين عام ٩٨٥ ونهاية القرن خرب الجزء المسيحى من اسبانيا ، فنهب برشلونة ودمر ليون . ولكنه فى عام ١٠٠٢ أضاع ما ناله ، وقتل وهو يحارب فى قشتالة .

وكان انتصار المنصور القصير الأمد ايذانا بنهاية الفتح العربى فى اسبانيا ، وبموته بدأت الخلافة الاسبانية تلفظ أنفاسها ايضا . فقد انقلب حرس الصقالة على الخليفة فتى وجعلوه اسيرهم . وتمرد البربر بدورهم لانتزاع كل ما يستطيعون من الدولة الأموية المجـــزأة . وفى عام ١٠٠٩ تنازل هشام عن الخلافة ، وفى خلال الاثنين والعشرين عاما التالية تعاقب ستة خلفاء بسرعة غريبة دون أن يكون لاحدهم سلطان ما ، وكان كل منهم العوبة اما فى ايدى الصقالة أو البربر او ابناء قرطبة ، حتى اذا ادى الدور المرسوم له قتل بأيدى حرسه أو لقى حتفه بالسم او اختفى من المسرح ببساطة .

وعند انتهاء القرن الحادى عشر كان النفوذ العربى فى اسبانيا ينكمش فى كل مكان . ليحل محله البربر أولا ثم المسيحيون . فبعد خلافة متحـــدة متماسكة اعقبها عشرون من الاسر الحاكمة والجمهوريات الهزيلة ، كانت كل منها فريسة سهلة للملوك المسيحيين فى الشـــمال ، الذين امتدت انتصاراتهم حتى طليطلة وبلنسية . وقـــد جرت المعركة الفاصلة عام ١٢١٢ عند لاس نافاس دى تولوزا ، عندما تمكنت قوة ضخمة من جيوش المسيحيين

المتحدة من قشتالة وارغن ونافار من هزيمة الجيش العربى . وعندئذ اصبحت اسبانيا العربية تحت امرة الفـــزاة ، فسقطت قرطبـــة عام ١٢٣٦ ، واشبيلية عام ١٢٤٨ . ولم يتمكن من الصمود سوى روندا الجبلية الحصينة وغرناطة . ولكن بعد قرنين دمرتهما الجيوش المشتركة لفرديناند ملك ارغن وايزابيلا ملكة قشتالة .

وهكذا اختفى الحطام الطافى فى اسبانيا للمد الاموى المنحسر ، ودالت الامبراطورية الثالثة والاخيرة للعرب . وكما حدث بالنسبة للامويين فى الشام وللعباسيين فى العـــراق ، كان الحـال كذلك بالنسبة للامويين فى اسبانيا . فى كل حالة كان العرب يبلغون ذروة القوة والمكانة على ايدى حكام مقتـــدرين ، ثم لا يلبثون ان يخسروا كل ما ظفـــروا به حالما يختفى اولئك الحكام المقتدرون من المسرح .

ومن عجب ان استقراء تواريخ الامم والشعوب يدلنا على ان فترات الانتصارات الحربية قلمـــا كانت تهيىء المناخ الصالح لازدهار الثقافة والعلم ، فى حين ان فترات الاسترخاء ، واحيانا الانحدار ، هى التى اتسمت بالثراء الثقافى والعلمى . ولقد كان الحال كذلك فى اسبانيا العربية ، نعم ان حكم عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم المشغوف بالكتب قد زرع بذور التطور الثقافى وجعل من قرطبة المركز الثقافى فى اوربا . ولـكن انجازهما يخبو بريقه امام الوثبة الكبرى التى اعقبت انهيـــار دولة الامويين الاسبان . ففى مجالات الادب ، والشعـــر ، والموسيقى ، كان تاثير اسبانيا العربية فى اوربا اقوى وارسخ من تاثير العباسيين . هناك على بن حزم الذى

كان حفيدا لمسلم اسباني تحول عن المسيحية ، وهو واحد من أغزر المؤلفين انتاجا وخصبا في كل العصور . في شبابه خدم هشام الثالث آخر خلفاء الامويين الاسبان الذي أسنوزره ، ثم انتقل الى الكتابة عن خلع سيده على يد العصبة العسكرية . لقد اتم تأليف نحو اربعمائة كتاب شملت شتى الموضوعات كالتاريخ والشعر وعلوم الدين والمنطق .

ومعظم الملوك الصغار الذين توالوا بعد سقوط الخلافة الاموية في قرطبة كانوا يعينون امراء للشعر في بلاطاتهم ، التي قامت منافسات حامية بين دويلات اشبيليه وطليطلة وغرناطة ، وكل حاكم يبارى الآخرين في التفوق الادبي ، وجميعهم قد عقدوا العزم على ان يكسف ضياؤهم بهاء قرطبة الوهاج . وكثير من موسيقى اسبانيا اليوم ، مثل الفلامنجو المشهورة ، ترجع اصولها الى الاغاني الشعبية وقصائد الحب التي الفها الشعراء والموسيقيون العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان يغنيها المنشدون الجوالون ، وهم أسلاف « التروبادور » الذين عرفتهم أوربا فيما بعد .

ولقد اهتمت اسبانيا العربية اهتماما قويا بالتعليم العام ، وخصوصا تعليم المرأة ، حتى كانت نسبة عالية من السكان تتقن المعارف الاولية كالكتابة والقراءة (خصوصا تلاوة القرآن) وقواعد اللغة العربية والشعر ، وبحلول منتصف القرن الرابع عشر لم تكن قرطبة وحدها هي التي تفاخر بما لديها من معاهد التعليم العالي التي تدرس فيها علوم الدين ، والفلسفة والقانون والرياضيات والطب والفلك والتاريخ

والجغرافيا ، بل حذت حذوها فى ذلك ايضا غرناطة وملقة واشبيلية . وكان فى كل بلاط ملكى مكتبته الخاصة به الى جانب العديد من مجموعات الكتب المملوكة للأفراد . والحق ان امتلاك مكتبة زاخرة بالكتب الفاخرة التجليد أصبح عنوانا لمكانة الطبقات الأوفر ثراء ، ويرجع ثراء ونفاسة المخطوطات العربية الباقية اليوم فى قصر الاسكوريال قرب مدريد – وهو واحد من أنفس وأغنى ما هو موجود من مثله فى العالم – الى ما جمعه فيليب الثانى وفيليب الثالث مما بقى من مكتبات اسبانيا العربية بعد الغزو المسيحى .

وفى ميادين الطب وعلم النبات والفلسفة ، كما فى الادب والشعر ، كان للعرب الاسبان تأثير بالغ فى تقدم الثقافة الاوربية، فمن الزهراوى طبيب البلاط لدى الخليفة الحكم الثانى الذى اكتسب مكانة جعلته معدودا أعظم جراح فى العالم العربى ، الى الفيلسوف والطبيب العظيم فى القرن الثانى عشر ابن رشد – كان علم الطب الذى جمعه العرب الاسبان من مصر والعراق وفارس ، يتدفق الى اوربا المسيحية فى مجرى لا ينقطع . (ولا تزال آثار التأثير العربى موجودة فى لغة الكيمياء التى تدين للاشتقاق العربى بمصطلحات مثل : صودا ، الكحول ، شراب ، قلوى) .

نعم ان قرب اسبانيا الى أوربا كان عاملا له اعتباره فى هذا التأثير ، ولكنه كان أفعل أثرا وأكثر أهمية بالنسبة لمترجمين أوربيين مثل جيرار الكريمونى الذى ترجم الى اللاتينية مؤلفات الرازى وابن سينا والزهراوى، وأديلارد الباثى مترجم الخوارزمى . وينصب هذا بصفة خاصة على التقدم الذى حققه العرب فى مجال الابحاث .

ففي الوقت الذي كان فيه المارسون الاوربيون مقيدين بالتعاليم المسيحية ، استطاع العرب اجراء بحوثهم العلمية في جو متحرر نسبيا من القيود الدينية . وعلى سبيل المثال فانه حتى القرن الرابع عشر كانت أوربا المسيحية لا تزال تعتقد اعتقادا راسخا بأن « الموت الأسود » هو من عند الله ، في حين ان طبيبا مسلما من غرناطة كان يصر على انه مرض معد ، كما « أثبتته التجربة ، والاستقصاء ، وأدلة الحواس ، والتقارير الموثوقة » .

وكان علم النبات من العلوم الاخرى التي ازدهرت في اسبانيا العربية . فانه لم يتم فقط استيراد كثير من انواع الفـــاكهة والازهار من الشرق العربي ، بل قد اجريت كذلك بحوث مستفيضة في الحيـــاة النباتية والتربة والمخصبات . وقد انعقد الاعتراف للعرب الاسبان بالبروز والتفوق في العصور الوسطى في تقرير انواع العلاج لامراض النباتات .

وكما قال مؤرخ معروف فان ذروة الانجــاز الثقافي العربي في اسبانيا انما كان في مجال الفكر الفلسفي . وكان ابن رشد ، آخر واعظم الفلاسفة العرب ، أرسخهم قدما في عقلانيته التي اخضعت كل شيء ، ما عدا اسس الاسلام المقدسة ، للاستدلال العقلي والتمحيص المنطقي .

ومن أبرز التعــــاليم التي اخضعهـا ابن رشد لهذا الاسلوب العقلاني مؤلفات ارسطو . وعلى الرغم من أن موسوعته في الطب وبحوثه في مرض الجدري وأمراض العيون قد اسهمت في مجال البحث الطبي بنصيب وافر مثل اسهام غيره من الأطباء العـــرب ، فان ما يذكر به

اساسا وبحله محل التقدير والاحترام انما هو دوره في شرح فلسفة ارسطو . والواقع ان قلة من الكتاب الآخرين تهيأ لهم ان يسيطروا على عقول العلماء والطلاب الاوربيين في العصور الوسطى كما سيطر ابن رشد ، ولقد ظلت مؤلفاته مصادر وثيقة في جامعات الغرب لما لا يقل عن اربعمائة عام بعد وفاته في نهاية القرن الثاني عشر . والواقع ان شهرته كانت اكثـــر ذيوعا في اوربا منها في العالم العربي . ذلك لانه توفر اكثر من اي فيلسوف آخر في عصره على شرح الفكر اليوناني للغرب ــ رغم انه هو نفسه لم يكن يقرأ كلمة واحدة يونانية وكان يعتمد على الترجمات العربية ــ وبهذا كان هو الموجه والمعوان على فتح العصر المدرسي في أوربا .

وجاء علماء آخرون واصلوا العمل الفلسفي والطبي لابن رشد وغيره من فلاسفة القرن الثالث عشر . ولكن بحلول عام ١٢٥٠ كان الغـزو المسيحي قد توغل في اسـبانيا ، وبالقضاء على الحـكم العربي جفت ينابيع الالهام التي نهل منها المفـكرون العظام . فكما ادت القيود العقائدية في المسيحية الى احباط التطور الفلسفي في اوربا العصور الوسطى مما افـادت منه اسبانيا العـــــربية ، كذلك ادى الغزو المسيحي بشبه الجزيرة الى شعور الفلاسفة العرب بالاختناق بسبب القيود العقـائدية التي فرضت عليهم . ومن المحزن ان التاثيرات الليبرالية التي نقلهـا الفلاسفة العرب في اسبانيا الى اوربا المسيحية لم تجد باي حال انعكاسا لها في سياسات قاهريهم المسيحيين . وبعد قيام محاكم التفتيش بدا كان الاوربيين قد عقدوا العزم على ان يسحقوا الى الابد النظام الليبرالي الذي

مكن رجالا كابن رشد من المساعدة فى انتشال أوربا من العصور المظلمة الى عصر جديد للمعرفة . ذلك انه بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٠ ، فرض التحول الى المسيحية قسرا ، وفى عام ١٥٥٦ أجبر كافة المسلمين بقوة القانون لا على التخـــلى فقط عن ديانتهم بل كذلك عن لغتهم ومؤسســاتهم . وأخيرا ، عند بداية القرن السابع عشر ، كان أى مسلم لا يزال باقيا على دينه اما ان يعدم أو ينفى عنوة الى افريقية .

وعلى النقيض مما كان من الغزاة المسيحيين لاسبانيا ، فان النورمانديين الذين اســتعادوا صقلية ومالطة بعد عام ١٠٦٠ قدموا مثالا فريدا للتعاون الأوربى العربى . لقد استطاع العـــرب على مدار قرن ونصف بعد غرق الأغالبة فى المد الفاطمى المتعالى ان يتشبثوا بوجودهم فى صقلية . بيد ان قبضتهم أصبحت واهية بسبب الحروب الأهلية بين الطوائف الاسبانية والافريقية للسكان ،وعندما غزا الكونت روجر النورماندىالجزيرة عام ١٠٦٠ ظفر سريعا بموطىء قدم باستيلائه على مسينا . وبعد ثلاثين سنة استولى على مالطة واتم اعادة غزو صقلية .

والواقع ان ما طالع العقلية المحدودة التعليم لهـــذا النورماندى المسيحى البسيط من رقى التعـليم وقـوة التأثير الاسلامى فى صقلية قد أثار بالغ دهشته . ففى باليرمو وحدها كان يوجد أكثر من ثلاثمائة مدرس ومثل هذا العدد من المساجد . ذلك لأنه فى صقلية أكثر من اى مكان آخر فى الامبراطورية ، وجدت ثقافات الشرق والغرب ملتقى طبيعيا فى الجزيرة ، حيث كانت اللغات اليونانية والعـــربية واللاتينية طوال الاحتلال الأغلبى

والفاطمي مستخدمة بقدر متساو كأداة التخاطب السائدة لاخلاط السكان اليونانيين والعرب والاسبان والايطاليين .

وبدلا من قمع اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ، اتجه روجر الى استغلال ورعاية الثقافة التي وجدها في هذه الجزيرة المتعـــددة الالسن . فعين المسلمين في ارفع مناصب الحكومة ، وجند اغلب قوة جيشه من الحاميات التي هزمها ، وحشد في بلاطه الفلاسفة والشعراء والاطباء العرب . وترك للمسلمين الحرية لممارسة عقيدتهم الدينية، ومواصلة الانشطة التجارية والصناعية والزراعيـة التي ادخلوها وساعدوا على ازدهارها . بل ان ولده وخليفته روجر الثاني ذهب الى ابعد من هذا ، فارتدى اللباس الشرقي المزخرف بحروف عربية ، وهو تقليـــد سرعان ما حاكته سيدات صقلية المسيحيات . واستخدم ارباب الحرف العرب لاقامة وزخرفة كنائس جديدة . وتولى ابو عبد الله الادريسي أعظم الجغرافيين ورسامي الخرائط وأكثرهم اصالة في ذلك العهد زخرفة البلاط . كما ان حفيد روجر الثاني ، فريدريك الثاني الذي حكم صقلية والمانيا واصبح عاهلا للامبراطورية الرومانية المقدسة وملك بيت المقدس على اخريات عهود الحروب الصليبية ــ حافظ كذلك على هذا التقليد ، بعد اذ عاد من مغـــامراته في الشرق وهو أشد تأثيرا بالاسلام منه تشربا لروح الغزوات الصليبية . وكان بلاطه يعج برجال العلم ويحتذي كثيرا من انماط الحياة الشرقية .

وبفضل تأثير خلفاء روجر الاول الموالين للعرب ، تهيأ للحضارة العربية ان يستمر نفوذها في صقلية الى عهـــد ممتد حتى القرنين الرابع والخامس عشر . وفضلا عن

ذلك بسبب سيطرة الملوك النورمانديين على جنوبي ايطاليا الى جانب صقلية ، وجدت الثقافة العربية طريقهـــا الى ايطاليا ذاتها . واصبحت الحـــرف اليدوية مثل الاشغال الحـــكومية وتجليد الـكتب والتطعيم بالذهب والفضة ونسج الحرير يؤتى بها من صقلية الى ايطاليا ، وامتد التأثير الى اشكال معينة من فن المعمار ــ مثل أبراج الاجراس التى نقلت أغلب الظن محاكاة للمئذنة الاسلامية . أما عن أزياء اللباس ، فقد اصبحت الاقمشة الشرقية تحاكي فى معظم البـــلاطات الاوربية ، وغدت الرسوم والتصميمات الصقلية ، تحتـــذى لدى الرجال والنساء من الطبقات الراقية فى كل مكان .

والواقع ان من الانصاف القول بان صقلية قد لعبت دورا يماثل فى عظمته دور اسبانيا العربية فى نقل الفنون والحرف العربية الى اوربا . ونظرا لان صقلية كان من حسن حظها أن غزاتها الجـــدد كانوا حكاما متنورين ومتعاطفين نسبيا ، فقد استمر العرب الصقليون يلعبون دورهم وقت ان كان ابناء عمومتهم فى اسبانيا يلقون القمع بأيدى الغزاة الاوربيين . ولكن بسبب قلة اعدادهم فانهم لم يستطيعوا الاحتفاظ الى ما لا نهاية بتفوقهم الثقافى دون استمداد افكار جديدة من المراكز الاهلية الـكبرى للعلم والمعرفة العربية فى بغداد ودمشق وقرطبة . فاذ ذاك كان قد انطفأ كل امل فى مثل هذا التعزيز الثقافى . فان بغداد ودمشق خربتا أولا بأيدى جحافل المغول القـــادمة من آسيا الوسطى ، ثم ســـقطت بعد ذلك تحت الايدى الهامدة الميتة للأتراك العثمانيين . أما فيما يتعلق بقرطبة فان ما اطلقوا عليه (حل المشكلة المغربية) جعل محاكم

التفتيش الاسبانية تخمد بصورة دائمة أسنى ضـوء للمعرفة فى عالم العصور الوسطى .

وبعد ذلك دارت العجلة دورة كاملة . فان الثقافة التى جاءت للعرب من اليونان القديمة ، ما لبثت أن عادت الى أوربا الحديثة . وخنق كل الجهد الادبى العربى على مدار الثلاثمائة والخمسين عاما التالية . وجاء الدور على العرب لـكى يغيبوا من جديد فى العصور المظلمة .

الفصل الرابع عشر :

ثـورة الشيـعـة
وانهيار الدولة العباسية

حينما انهارت الأسرة الأموية الحاكمة فى عام ٧٥٠ انتهز العلويون الفرصة لتحقيق حلمهم فى الخلافة وربطوا حظهم بالثورة العباسية . والآن ما لبثوا ان برزوا مرة أخرى لاستغلال تدهور نظام الحكم العباسى . فعندما اسلم خلفاء المامون انفسهم لحراسهم الأتراك ، كان الشيعيون متربصين لتحقيق الحلم ، وفى هذه المرة فقط اوشكوا على تحقيقه .

بيد ان الانقسامات التى تعرض لها مذهبهم عاقت هذه الحركة بسبب اصرارهم على أن يكون الخليفة من نسل على ، حتى سموه (الامام المهدى) ، ثم (المنتظر) . ولم يتيسر اجتماعهم على رأى الا بعد ظهور طائفة منهم عرف أفرادها باسم (الاسماعيلية) ، نسبة الى اسماعيل من أحفاد الحسين . وكان مؤسس هذه الطائفة عبد الله بن ميمون ، وكان ابن طبيب عيون فارسى ، وقد بدا نشاطه بتنظيم ثورات شيعية .. أثناء حكم المامون . فاخذ يرسل مبعوثه الى البصرة اولا ثم الى السلمة فى شمال الشام للتشكيك فى معتقدات السنيين ولاعلان قرب قدم الامام المنتظر الذى سيعود يوما الى الظهور وبعيد الدين القويم ، ولما كان داعية سياسيا فقد استغل الى ابعد

حد العداوة المتزايدة بين العرب والفرس واعلن انه يهدف الى تشكيل حركة توحد بين كافة المفكرين الاحرار وتتمكن من انتزاع الخلافة من العباسيين (المغتصبين) وتضعه هو وذريته على العرش .

واذا كانت هذه المطامع الشخصية لابن ميمون لم تتحقق ، فبوفاته عام ٨٧٤ كان قد استهل حركة ادت الى ظهور طوائف وجماعات سرية اخرى استطاعت بدورها بث الرعب والاضطراب في الامبراطورية ، ونجحت على الاخص وبصورة مثيرة في اجلاس أسرة شيعية حاكمة على عرش مصر على امتداد مائتى عام . واول هذه الجماعات شـكلها احد اتباع ابن ميمون المتعصبين له وهو حمدان قرمط وكان فلاحا من العـــــراق . وقد استطاع بقوة شخصيته استغلال معاناة الفلاحين المحليين وبدو القبائل وتألبت هؤلاء على الاخص بالعراق والشام وبلاد العرب ودفعهم الى الثورة ضد العبـــاسيين والاتراك المتسلطين عليهم . وعلى مدار المئة عام التـــالية واصل القرامطة هجماتهم على الخلافة واغرقوا الشام والعراق في الدماء . ولكن على الرغم من نجاحاتهم في هذا الميدان ، فقـــد ظلوا مجرد حركة فوضوية تؤثر مقاومة سلطة الآخرين على ممارستها لنفسها .

بيد ان ابناء عمومتهم الفاطميين كانت لهم قصة اخرى مختلفة تماما . فعلى الرغم من انتمائهم ايضا لطـــائفة الاســـماعيلية ، الا انهم لم يأخـــذوا بمذهب القرامطة التخريبي ، وقد تهيأ لهم ان يظفـــروا بامبراطورية وان يقيموا خلافة لهم اصبحت اشد قوة وأعلى مكانة مما كان لمعاصريهم العباسيين .

كان مؤسس الفاطميين ، الذين اتخذوا اسمهم من

دعواهم بصلة النسب الى فاطمــــة بنت النبى ، هو سعيد بن حسين ، من نسل عبد الله بن ميمون مؤسس الاسماعيلية الفارسى . وفى عام ٩٠٩ قدم الى تونس من مركز الاسماعيلية فى السلمية ، وعلى الرغم من الزج به فى السجن على يد الحاكم الأغلبى ، الا انه أنقذ بمساعدة يمنى يدعى عبد الله الحسين . وكان عبد الله قد نجح فى تحويل قبائل البربر فى شمال افريقية الى المذهب الشيعى ، وقد تعاون هو وسعيد بعد خلاصة من السجن فى الاطاحة بالأغالبة السنيين والاستيلاء علىامبراطوريتهم الخاصة ، بما فيها صقلية ومالطة . وقد نودى بسعيد اماما وخليفة واتخذ لقب عبيد الله المهدى . ثم أسس عاصمة جديدة سماها المهــدية على الساحل التونسى قرب القيروان ، واتجه بعد ذلك الى بسط رقعة ملكه غربا . ولكن بعد ان واجهـــه عبد الرحمن الثالث على ساحل البربر تحول بالزحف الى مصر . وفى عام ٩١٤ استولى على الاســــكندرية ، وبعد عامين خرب دلتا النيل . كما استعان بالأسطول الذى غنمه من الاغالبة وأغار على سواحل فرنسا وجنوا وكالابريا .

ولم تؤد وفاة ســـعيد عام ٩٣٤ الى وقف التوسع لامبراطورية الفاطميين . فقد استأنف ولده الضغط على سواحل أوربا واستولى على جنوا ، واستطاع المعز احد حفدته ان يمد حدوده الغربية حتى المحيط الاطلنطى . ثم لم يلبث الفاطميون ان حققوا أعظم انتصار لهم باضافة مصر الى امبراطوريتهم المتزايدة . كان عبد صقلى سابق يدعى جوهر الصقلى هو قائد جيوش الفاطميين التى فتحت مصر . وبعد أربع سنوات من دخوله المظفر الى العاصمة ، اقام اثرا اعظم لتخليد شهرته باضافة حى جديد الى الفسطاط هو الذى أصبح عاصمة مصر الفاطمية

تحت اسم القـــاهرة . وفى نفس الوقت بنى جوهر الصـــقلى جامع الأزهر العظيم ، الذى غدا أكبر معهد للدراسات الاسلامية .

ولم تلبث مصر أن تحولت من المذهب السنى القويم الى الهرطقة الشيعية ، ولعل قبول المصريين لهذا التحول كان راجعا الى حنين الكثيرين منهم الى حدوث تغيير يهيىء لهم استقلالا حقيقيا عن السيطرة العبـــاسية . نعم ان الفاطميين عجلوا فيما بعد على نقض هذا الأثر الطيب لهذا التغيير عندما فرضوا المذهب الشيعى على المصريين عنـوة وعنـدما عادوا الى أسلوب العباسيين فى جلب المماليك الاتراك لتعزيز الجيش . ولكن مصر كلها ابتهجت عندئذ بهذا التحرر الذى بدا فجاة كأنما هبط نعمة على الناس .

وبالاستيلاء على مصر ورث الفاطميون السيطرة على الشـام واليمن والحجاز ، بما فى ذلك المدن المقدسة التى كانت الخلافة المضمحلة فى بغداد عاجزة عن رفع أيديهم عنها ، ولم تلبث خلافة الفاطميين الشيعية المنافسة أن فاقت العباسيين السنيين قوة ونفـــوذا . فمن المحيط الأطلنطى الى المحيط الهندى كان اسم المعز هو الذى يذكر فى صلاة الجمعة دون اسم الحاكم الأعزل فى بغداد .

ومع ذلك ، وبرغم نجاح الأسرة الفـــاطمية فى أول عهدها ، فلم يقدر لها أن تكون أطول عمرا من العباسيين . ولم يمض وقت طويل على الانتصار الكبير الذى حققه جوهر حتى بدأت الأسرة فى التدهور . فان (الحاكم) حفيد المعز كان فى الحادية عشرة من عمره حين ولى العرش ، وعندما بلغ طور الرجولة بدا جليا انه متعصب مجنون يتلذذ بالقسوة والقمع ويمارسهما بأسلوب شيطانى

ضد المسيحيين واليهود ، اذ أجبرهم على لبس السواد وركوب الحمير ووضع أطواقه حول أعناقهم . وقد قتل (الحاكم) العديد من وزرائه الذين سعوا الى التخفيف من بشاعة أعماله . وفى محاولة عمياء للقضاء على المسيحية فى أملاكه دمر عددا من الكنائس . وقد جاوز هذا المجنون كافة الحدود عندما ادعى الألوهية ، وأخيرا لقى حتفه قتلا فى عام ١٠٢١ فوق جبل المقطم بتحريض من أخته التى اتهمها فى عفتها .

وقد حاول خلفاء (الحاكم) التعويض عن تطرفه ، فبدأوا باعادة بناء كنيسة القيامة . بيد انهم كانوا فى أغلبهم شبانا ينقصهم النضج ، عاجزين عن وقف الفساد الذى عم . فقد ثارت الشام وفلسطين على السيطرة المصرية . واستولى النورمانديون على صقلية ومالطة ، وأخذت ولايات الامبراطورية الفاطمية تنسلخ واحدة تلو الاخرى ، بل ان بعضها عاد الى ولائه القديم للعباسيين . وفى الداخل عاد الحرس من المماليك الاتراك والشراكسة الى تكرار عملية مواطنيهم فى بغداد ، فاغتصبوا سلطة الخليفة ، وعينوا وزراء من ذيولهم المقربين . يضاف الى هذا كله تفشى المجاعة مدى سبع سنوات مما أدى الى خراب البلاد واستنزاف مواردها .

ومع ذلك فان الفاطميين برغم هذه النكسات وتأثرا منهم بأصول الفارسية ، استمروا يحيون حياة الترف والأبهة التى كادت تضارع مثيلتها فى بغداد فى عصر « الف ليلة وليلة » . وكان القصر فى القاهرة يؤوى ما لا يقل عن ثلاثين الفا من الناس ، نصفهم من الخدم والباقى من جنود حرس الخليفة وعائلاتهم . وكان للخليفة شخصيا عشرون

الف بيت فى العاصمة ، معظمها من الطوب وبارتفاع حوالى خمسة طوابق ، وعدد مماثل من الحوانيت . وكانت الشوارع الرئيسية مرصوفة ومضاءة ، وشوارع الاسواق مسقوفة . وكانت الامانة وحسن المعاملة مرعيتين الى حد كبير . وكانت الرقابة الصارمة على الاسعار مفروضة على أصحاب الحوانيت ، وكان من يبيعون باسعار تجاوز الحد الأقصى يطاف بهم فوق جمال . ويكرهون أمام الناس على الاعتراف بسوء فعالهم . وكانت السرقة تكاد تكون غير معروفة ، وكانت حوانيت الصاغة والصيارفة تترك بغير اقفال فى الليل . وكان الخلفاء الفاطميون يقتنون مجموعة ضخمة من المجوهرات والحلى الذهبية وآنية المائدة والبلور والعاج والأبنوس . وكانت سيوفهم وخناجرهم مطعمة بالاحجار الكريمة ، وفى المناسبات الرسمية العامة كانت تمد فوق رءوسهم مظلات كبيرة محلاة بالجواهر . ومع ذلك فعندما اصابت المجاعة مصر عام ١٠٧٠ لم يتردد الخليفة القائم فى ارسال اطفاله الى بغداد لئلا يتعرضوا للموت جوعا فى مصر .

وفى مجال التقدم الثقافى كان الفاطميون متخلفين كثيرا عما كان ينتظر من أسلافهم الفرس . لقد بنى جوهر الصقلى جامع الازهر ، وأسس العزيز أب (الحاكم) مكتبه قيل انها ضمت فى وقت من الاوقات مائتى الف كتاب ومخطوط ، تعرض الكثير منها فيما بعد للنهب على أيدى الجنود الاتراك الذين استخدموا المخطوطات فى اشعال نيرانهم واغلفة الكتب الجلدية فى ترقيع نعالهم . وكان (الحاكم) أيضا مشغوفا بالفلك ، فبنى مرصدا فوق جبل المقطم الذى لقى فيه مصرعه . كما بنى (دار الحكمة) للترويج للمذهب الشيعى . ولكن ، بغض النظر عن هذه الامثلة القليلة ، كان الانتاج الثقافى

للفاطميين هزيلا . فقد كان العلماء والكتاب سواء كانوا من ابناء البلاد أو من الخارج لا يجدون الا أقل التشجيع وأكبر التخذيل في جو يسيطر عليه التعصب الشيعي .

ومع تقدم الحكم الفاطمي تحول ما بدا انه تغيير منعش الى لون من التعصب الشديد تفاقم الى حد انكار كل حرية للتعبير .

لكن اذا كان التعصب الشيعي قد حال دون قيام رجال الفكر برسالتهم ، فان غيرهم قد حيل بينهم بالمثل وبين الثورة على الحكومة الدينية الفـــالية وعلى التحالف غير المقدس بين المماليك والخلفاء . وهكذا تشبث الفاطميون بملكهم المتهـــــاوى مدى مئة وخمسين عاما بعد موت (الحاكم) . وفى خلال المائة عام الأخيرة من حكمهم ، لم تكن امبراطوريتهم تتألف الا من القليل غير مصر ذاتها .

ولكن ، مع اشتداد ضعف بغـــــداد وانهماكها البالغ فى مشاكلها الخاصة مما حال بينها وبين محاولة استرداد مصر ، فقد اتيح لهـذا الفرع المتداعى من الطـــائفة الاسماعيلية ان يظل بعيدا عن التحدى ، الى ان اصبحت مصر مسرحا للقتــــــال بين صلاح الدين والصليبيين فى عام ١١٦٤ .

وقبل أن يبدأ الفاطميون فى مصر فى التدهور والانهيار بوقت طويل ، كان العباسيون التعساء فى بغداد يتداولهم الحكام الأتراك واحدا بعد الآخر ، وكل منهم يغتصب السلطان بفلظة أشد من سابقه ، كان الخلفاء يجيئون ويذهبون ، كل منهم يقتل أو يخلع بعد بضع سنوات ، وجميعهم لم يكونوا سوى أدوات ذليلة بين أيدى سادتهم الأتراك . وكان الفساد والغدر هما الطابع الغالب فى تلك الأيام . لم يكن احد آمنا على نفسه من السفاح ، وأقلهم

حظـــا من الامن كان الخليفة نفسه . وفيما يختص بالامبراطورية ذاتها ، فان عوامل الفرقة التى لابد من وجودها فى كومنولث متعدد القوميات استغلت الى اقصى حد الضعف السائد فى المركز . فبنهاية القرن العـــاشر كان شمال افريقية ومصر مستقلين ، وذهبت الشام مع مصر ، واجتاح القرامطة شبه الجزيرة العربية وجنوب العـــراق . وانسلخت أجزاء من فارس قبل ذلك ، فحكمتها سلسلة من الاسرات الصغيرة المستقلة تعاقبت عليها ، مثل الصفارية ، والسامانية ، وبنى بوية الذين اقاموا الدولة الغـــزنوية وكانت لهم مطامع فى غزو العراق . ولما تم لهم ما أرادوا صاروا يعينون الخلفاء ويعـــزلونهم حسب اهوائهم ، واصبحت بغداد مجرد عاصمة اقليمية تخضع للاوامر التى تصـــدر اليها من عاصمتهم فى شيراز .

وفى خلال ذلك بدات قوة تركية جديدة فى الشرق تتوغل فى املاك الغزنويين . كانوا الســـلاجقة الاتراك الذين استمدوا اسمهم من زعيم تركمانى يدعى سلجوق ، الذى قاد قبيلته عام ٩٥٦ من سهول القرغيز فى تركستان لكى يستقر فى الاقليم المحيط ببخارى ، حيث أصبحوا مسلمين سنيين متحمسين . وبانتهاء القرن قام طغرل حفيد سلجوق بالزحف الى خراسان واستولى على مرو ونيسابور من الغزنويين . وبانتشار جيوش طغرل فى أراضى الغزنويين استولوا أيضا على بلخ والرى واصفهان. وبعد ثمانى عشرة سنة من اول زحف لجيوش طغرل من بخارى ، وصل على راس قبائله الى ابواب بغـــداد ذاتها . كان ذلك فى الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٠٥٥ ، اى بعد مئة وعشر سنوات من وصول الغزنويين الى هذه الابواب . وكما حدث فى المرة السابقة عنـدما

فى حرس الخليفة الاتراك امام الغزنويين ، فان هؤلاء فروا الآن من السلاجقة ، ولم يتركوا للخليفة خيارا سوى الترحيب بالفاتحين الجدد .

وقد انتزع طغرل ايضا آخر قطرة من المجد لنفسه والاذلال للخليفة فى الاحتفال الذى نصب فيه وصيا على الامبراطورية وملكا على الشرق والغرب ، مع لقب السلطان . لقد جلس طغرل على عرش فى مواجهة الخليفة، حيث تلقى خضوعه وتأكيدا بصداقة دائمة . وبعد هذا المشهد المنقطع النظير خلعت عليه سبعة أثواب تكريما له ، تمثل الولايات السبع الباقية فى الامبراطورية العباسية ، وحزام به سيفان يرمزان الى نصفى المملكة الشرقى والغربى . وفى النهاية زحف طغرل بجيشه من بغداد واتخذ عاصمته فى مرو باقليم خراسان .

وقد اتبع طغرل هذه الانتصارات بالزواج من ابنة الخليفة . بيد انه لم يمتد به العمر بعد الزواج ، اذ توفى عام ١٠٦٣ ، تاركا ابن أخيه الب ارسلان (أو البطل الاسد) خلفا له . وكان هذا الشاب اللامع الوسيم قد علا شأنه فى غزوات السلاجقة لفارس والعراق ، كما كان اقرب الى الغرابة ، اذ كان له شاربان فائقا الطول الى حد كان لابد معه من ربطهما الى وجهه اذا خرج للصيد .

وبالنسبة الى شخصه كان أبوه مجرد كافر همجى قبل ان يتحول الى الاسلام وكان هو ذاته أميا تماما ، فان تقديره للفنون كان مثارا للغرابة . لقد امضى طغرل معظم حكمه القصير للعراق فى تدعيم مركز السلاجقة والقضاء على ما جاء به الغزنويون من النفوذ والعادات الشيعية . وهكذا فانه عندما ورث الب ارسلان السلطة كان

الامبراطورية العباسية موحدة كما لم تكن لأكثر من مئة وخمسين عاما . نعم ان اسبانيا وشمال افريقية ومصر كانت لا تزال مستقلة ، لكن تهـديد القرامطة فى شبه الجزيرة العربية كان قد زال فى النهاية ، ومن دمشق الى بخارى كان السلاجقة قد توطد سلطانهم بلا منازع .
وبعد تأمين الجبهة الداخلية على هذه الصورة لم يضيع الب ارسلان وقتا فى مد رقعـــة املاكه على حساب الامبراطورية البيزنطية . فزحف بعـد سنة من ولايته العرش الى داخـل ارمينيا المسيحية واستولى على عاصمتها آنى . وفى عام ١٠٧١ هزم الروم عند منزيكرت فى ارمينيا وأسر الامبراطورالبيزنطىرومانوس ديوجنيس. وعندما سيق امام آسره سئل الامبراطور ما الذى كان يفعله بالب ارسلان لو انعكست الآية ، فجاء الرد الصريح بهذه العبارة : « كنت اجلدك حتى الموت » . والواقع أن هذه الصراحة البالغة جعلت السلطان السلجوقى يوافق على الابقاء على حيـاة رومانوس فى مقابل فدية ضـخمة وجزية سنوية ، بالاضـافة الى تسليم جميع الاسرى المسلمين لدى الروم .
وقد بدأت القبائل السلجوقية بعد ان ازاحت الحكم البيزنطى عن جزء كبير من آسـيا الصغرى تنتقل من الشرق وتستقر فى الاراضى التى غزوها حديثا . وهكذا ولأول مرة أصبحت هـذه الاقاليم منضـوية تحت لواء الاسلام ، ووضع الأساس لقيام الدولة التركية المسلمة فى العصر الحديث . ان غيرهم من الفاتحين والخلفـاء والمسلمين من أمويين وعباسيين قد فتحوا واحتلوا مرارا مناطق كبرى من آسيا الصغرى خـلال القرنين الثامن والتاسع ، ولـكن مد الحروب كان يردهم دائمـا الى الخلف . وفضلا عن ذلك فان الجيوش العربية لم تكن

تجد الفرصة ولا كانت لديها الرغبة في الاستقرار في هذه الهضاب المرتفعة الوعرة البعيدة عن الدفء والخصب في الشام وفلسطين والعراق . أما الأتراك السلاجقة فقد هبطوا من أراضي موحشة تجتاحها الرياح في تركستان ، وقد شعروا أنهم في ربوع ديار آمنة في المناخ البارد والجبال الوعرة في آسيا الصغرى .

ولقد بدا أن الب ارسلان احب الارض المرتفعة هو أيضا ، ففي خلال السنوات التسع من حكمه لم يزر بغداد قط وجعل عاصمته في اصفهان بفارس . وفيها كان وزيره نظام الملك الفارسي المشهور ، وهو من أعظم رعاة العلم والمعرفة في تاريخ الاسلام . فان نظام الملك هو الذي أسس « معهد النظامية » في بغداد ، الذي اصبح نموذجا لكل معهد آخر للتعليم العالي في العالم الاسلامي . وهو الذي أصلح التقويم الفارسي ، ووضع تحت رعايته عمر الخيام الشاعر الرياضي الفلكي الأشهر وساعده في اخراج (رباعياته) وغيرها من المؤلفات . ولقد أخبرنا المؤرخ ابن خلكان ان نظام الملك كان يجمع في يديه مقاليد السلطة كلها ، في حين لم يكن الخليفة يملك شيئا ولم يكن له الا أن يجلس على العرش أو يتمتع بالصيد . ومهما يكن فان نظام الملك كان سلطة مؤثرة ومتحضرة ، فقد ألقى شعاعا ثقافيا باهرا فوق المشهد المظلم لتدهور العباسيين وانهيارهم .

ولقد توفى نظام الملك مع (ملك شاه) الخليفة التالي في عام واحد ، ١٠٩٢ ، الأول بيد شيعي متعصب والثاني بالسم . وثار نزاع على السلطة بين أبناء (ملك شاه) الثلاثة ، وما لبث الصيف المشرق الزاهي الذي نعمت به الامبراطورية تحت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأول

ان انحسر سريعا الى شتاء من الانقسام والهزيمة . وعلى الرغم من ان السلجوقيين استمروا يسيطرون على الخلافة مدى قرن آخر ، فان الامبراطورية التى وحدها طغرل والب ارسلان سرعان ما آذنت بالزوال . فقد انفصلت الولايات الشرقية ، الى غير ما عودة قط ، وفى نفس الوقت زحف الصليبيون من الغرب . وبعد ذلك بمئة وخمسين عاما هبطت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو من الشرق ووضعت نهـــــاية لاحتضار البيت العباسى الذى كان يعالج سكرات الموت .

ولقد كان مقدرا ان يعرف العالم الاسلامى فيما بعد مرحلتين من المجد والنجاء من الغزوين المسيحى والوثنى المغولى . كان مقــدرا ان يسطر كل من صـلاح الدين والسلطان المملوكى بيبرس صفحتيهما المشرقتين فى تاريخ الاسلام . ولكنهما استمدا من مصر لا من بغداد القوة التى ردت الصليبيين على أعقابهم وصدت المغول من بعدهم . ذلك ان بغداد قد انتهى دورها كفيصل فى الاحداث ، واصبحت الآن مجرد متفـــــرج عليها فيمـا بقى من الامبراطورية العباسية .

فهرس

القسم الأول :

القسم الثانى :



هذا الكتاب

انتونى ناتنج سياسى انجليزى اشتهر بالصدق والوقوف الى جانب الحق والصلابة فى الرأى ، وعندما وقع الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ احتج على ذلك العدوان واستقال من وظيفته وكان وزيرا للدولة للشئون الخارجية فى وزارة انتونى ايدن ، ولم يغفر اليهود له موقفه الى جانب مصر والعرب فطاردوه ولكنه لم يحفل لهم واصدر كتابه « العرب » وقص فيه تاريخ العرب باسلوب سهل موجز ممتع بادىء من العصر الجاهلى ومنتهيا الى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ·

وفى الفصول الخاصة بالعصر الحديث وقف ناتنج الى جانب الحق العربى وكشف مخططات اليهود بالتآمر مع قوات الاستعمار لانتزاع فلسطين من أرض العرب وتسليمها لليهود بالخداع والكذب ، كل ذلك فى أسلوب علمى دقيق مؤيد بالوثائق لهذا اختار الهلال هذا الكتاب ليهديه الى قراء العربية على جزءين ·

وهذا هو الجزء الاول ·